أبو القاسم الشابّي

Twitter: @abdullah_1395
23.10.2012

ketab.me

رحلة طائر فى دنيا الشعر

عبد العزيز النعمانى

الدار المصرية اللبنانية

أبو القاسم الشابى

رحلة طائر فى دنيا الشعر

عبد العزيز النعمانى

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

مشاهير الشعراء العرب للشباب والناشئين

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٤٧٨٩ / ٩٧
الترقيم الدولى : 977 - 270 - 336 - x
جمع وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : محرم ١٤١٨ هـ ـ مايو ١٩٩٧م .

الشابّى

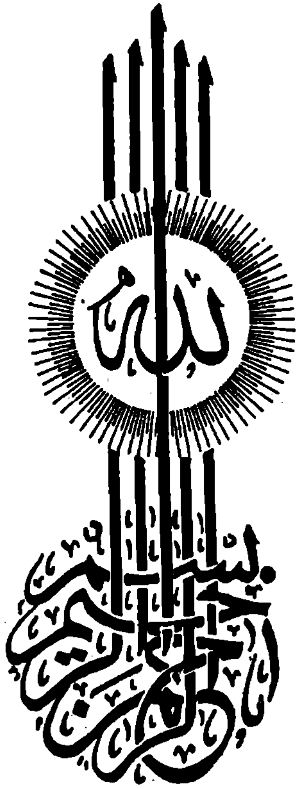
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

هذه السلسلة وهؤلاء الشعراء ١١
قبل البَعْد ١٧
الفصل الأول : فى روضة الشابى ٢١
حياة الشابى ٢٥
مدخلٍ إلى أدبه ٣١
الفصل الثانى: أدب الشابى ٤٣
الشعر ٤٣
الشابى فى مرآة الشعر ٥٠
طرف من كتاباته النثرية ٦٩
الفصل الثالث : مختارات من شعر الشابى ٧٥
- مأتم الحب ٧٥
- ياشعر ٧٧
- صفحة من كتاب الدموع ٨١
- الدنيا ميتة ٨٦
- المراجع ٨٨

هذه السلسلة وهؤلاء الشعراء

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .

والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبير على مرِّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر ـ كما يصنعون فى الأفراح ـ لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثرِهم . . والمُمجِّدُ لذكرهم .

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية ، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

ـ فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

ـ ويبدأ العصر الإسلامى منذ ظهور الدعوة . . وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

ـ ويبدأ العصر الأُموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

ـ أما العصر العباسى الأول يبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٢٣٤ هـ .

ـ ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول على بغدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

ـ ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد على حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة ـ كما تتغير الظروف السياسية ـ وإنما يعنى هذا التقسيم أن ملامح الأدب فى عصر ما تستكمل مقوماتها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا ! !

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً فى زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثن تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورُؤَاهُم وتجاربهم ، متجاوزوا سَمْتَ العصر ، واخترقوا حاجزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شامخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنسانى ، على حين أسول الزمن على مَنْ لم

يمتلك هذه القدرة عباءته السوداء ، خطواهم فى جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا فى التعبير عن عصرهم ، ولا امتطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارىء المعاصر ـ فى زحام الحياة الضاغطة المهمومة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ـ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذج ، وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هى جزء من عظمة التاريخ العربى والحضارة العربية . . وهى أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ، فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا فى باب كل عصر نطرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئة . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المناهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنص الشعرى . . يهدف كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء شعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية فى هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين باعتبار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقحم تلك العصور فى شغف وإقبال .

رابعاً : ألاّ تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظر إلى خريطة الشعر العربى من المحيط إلى الخليج فى وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارىء المعاصر هذا الحسّ العربى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاصَ والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلان بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم فى إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلَّاق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

هــذا هو الشابى ، الإنسان ، الشاعر ، الذى تمخضت عنه بيئة المغرب العربى ، وأنضجت أدبه من خلال اطلاعه على التراث الأدبى العربى ، وخلاصة الأدب الأوربى الفرنسى المترجم .

والذى يطلع على أدب الشابى ، شعره ونثره ، يدرك أنه يتسع لأقطاب دلالية لا تختلف فى المرجع ولا السياق ، بما يؤكد أن الشابى كان يعيش حياته بمقامات أشبه ماتكون بالمقامات الصوفية ، فهو يعيش فى ظلال الغاب والجمال حياة لم تقتصر على لحظات الكشف يقظة ومناماً ، بل امتدت لتشمل كل لحظات حياته ، مرورًا بالطبيعة ، وانثيالا فى رحابها ، بروح طاهرة ضاربة فى المقدَّس ، متمكنة من الدنيوى والإنسانى تمكناً واضحاً .

إن الشابى لم يكتب شعره مأخوذًا بالذهنية الأسطورية فحسب ، بل إنه استوى فى البشرية ، متأملاً ، محاولاً العثور على الأصل البكر . إنه لم يحلِّق فى متاهات ميتافيزيقية بقدر ماالتمس طهارة الإنسان فى حياة كان متأكدًا أنها طريق للموت ، ولهذا فقد رأى أن الإنسان ينبغى أن يكرس حياته للجمال والفن ، من خلال أقطاب دلالية - كما قلنا فى صدر هذا التقديم .

وأول هذه الأقطاب جمال الطبيعة ، فقد نجح الشابى فى أن يربط بين الحس المرهف ومظاهر الطبيعة الصافية .

أما القطب الثانى فهو الغُربة ، فقد عزف الشابى عليه أنغام الألم ، والمعاناة واليأس و الضباب .

أما القطب الدلالى الثالث فهو الإبداع ، أو الكتابة ، والتى شقت طريقها فى اتجاهين : اتجاه يستنفر أعماق الشاعر ، واتجاه آخر يغوص فى أعماق هذا الفن العظيم . . فن الشعر .

إن أدب الشابى خرج عن المألوف فى بيئته وعصره ، فلم يحصر نفسه فى النمطية التى كانت سائدة ، بل نهض شامخاً إلى تجربة تفوق التجديد ، لأنه كان يسعى إلى التأسيس ، يقول فى مذكراته : « ... فى هذا الوسط الشعرى البديع ، جلست منفردًا ، على ربوة صغيرة ، تتصل بتلال كثيرة ، أفكر فى أحلام الحياة ، وأتملى جمال الوجود ، وطافت بنفسى ذكريات كثيرة متتالية كأسراب الطيور ، وغصْت فى عالم الذكرى البعيد ...

لقد ملأ الشابى ـ فى عمره القصير ـ الدنيا شعرًا ونثرًا ، وكان صادقاً فى أدبه ، يمعن فى تأمل الذات الإنسانية ، ويخترق سطح الحياة المألوفة ، لينفذ بعزم جديد إلى عمق الحياة البشرية بأبعادها المتنوعة ، فكان أدبه تجربة إنسانية وجدت وعاءً فنيًّا ، استوعب الرياضة الأثيلة ، والمران النافذ عند شاعرنا . لقد كان الشابى من المجددين ، ولكنه لم يكن يعادى القديم ، وكان يقول فى ذلك :

« إذا كنت أدعو إلى التجديد الأدبى وأعمل له ، فإن ذلك لايدفعنى إلى الهزء والسخرية بآداب الأجداد ، بل إننى لأومن كل الإيمان بما فيها من جمال فنى ، وسحر قوى . وأعتقد أنها قد آتت فى عصورها الحية لأجدادنا كل ماطمحت إليه أشواقهم من غذاء معنوى دسم ، ولكننى أُومن إلى جانب ذلك أن فى الحياة آفاقًا مجهولة ساحرة غير مافى الأدب العربى من آفاق » .

إنه دائما يبحث ، ودائماً يتأمل ، ودائماً يدفع بإبداعه إلى آفاق جديدة ، كان يرى أنها جديرة بالاهتمام. وقد رافقتُه عبر هذه الصفحات بما يجعل القارىء يُعايشه ، بل يرقب مسيرة حياته عن كثب ، ومسيرة شعره التى حرصْت على أن يكون تأريخها فى نهاية كل قصيدة وقع عليها الاختيار .

لقد كان الشابى شاعر القلب ، وشاعر الأحزان . حَمَل هَمَّه الذاتى ، وهمَّ وطنه تونس ، وهَمَّ الأمة العربية ، بل همَّ العالم الإنسانى كله . وإنه - بهذا - لباقٍ بيننا بكلماته التى تشغل صفحات الذهن ، وصفحات المؤلفات والدراسات ، وإنه لكذلك فى صفحات الأفئدة .

«**المؤلف**»

مولده ونسبه :

هو أبو القاسم بن محمد بن أبى القاسم بن إبراهيم الشابِّى ، ولد بالشابِّيَّة إحدى ضواحى مدينة «تَوْزرَ » التونسية يوم ٢٤/ ٢/ ١٩٠٩ . وتوزر هذه كبرى مدن منطقة الجريد بالجنوب الغربى لتونس . وتمتاز بلاد الجريد بواحات النخيل المترامية ، وينابيع المياه الجارية ، وبساتين الأشجار الجميلة . إنها منطقة ذات سماء صافية ، وجو جاف حار . . على أطرافها الجنوبية شط ممتد بين الشرق والغرب ، تحوطه الصحراء من أقصى الجنوب .

ويتميز أهل هذه المنطقة بالذكاء ، والشغف بالعلم ، والسعى لطلبه ، والنبوغ فيه . ووالد الشابى أحد النوابغ ممن درسوا العلوم الدينية . تعلم فى تونس ، ثم أُوفِدَ إلى الأزهر الشريف ، حيث تخرج فيه بعد سبع سنوات من الدراسة ، ثم عاد بعد ذلك إلى تونس ليلتحق بجامع الزيتونة ، فنال شهادته العليا ، وأصبح فى عام ولادة ابنه (أبى القاسم) قاضياً شرعيًّا .

وتبدأ رحلة الشابى الابن ، حيث تنقَّل منذ طفولته الباكرة فى شتى أنحاء القطر التونسى ، مرافقاً أباه فى تنقله بحكم وظيفته بين مختلف المحاكم الشرعية ، وحفظ القرآن الكريم وعمره تسع سنوات . فكان ذلك إشارة إلى نبوغه المبكر ، ورافق ذلك تلقيه مبادىء العلوم العربية والدينية عن والده .

وفى عام ١٩٢٠ انتقل للعاصمة ، حيث ألحقه والده بجامع الزيتونة ،

الذى يشبه الأزهر فى مصر ، فى طرائقه التعليمية ، ونوع ثقافته الدينية واللغوية . وفى العاصمة تفتحت بصيرة الشابى ، وأطلت مواهبه على آفاق غير محدودة من الآداب والعلوم ، غذاها ماورثه عن أبيه من شغف شديد بالاطلاع .

لقد جذبته بشدة كتب جبران خليل جبران وأدباء المهجر ، وكذلك مؤلفات العقاد وطه حسين وأحمد حسن الزيات ، وكل ماأبدعته أقلام النهضة العربية فى الشرق . كان يطالع بانتظام معظم المجلات المصرية ، وبخاصة المقتطف والهلال والسياسة ، كما قرأ معظم دواوين الشعر القديم والمعاصر ، وكان يحب ـ بوجه خاص ـ أشعار ابن الرومى ، والمتنبى ، والمعرى .

وفى عام ١٩٢٧ ظهرت فى الصحف التونسية بواكير شعره ، فلفتت إليه الأنظار بشاعريته المجنحة ، واتجاهه الثورى . وفى العام نفسه ظهرت أكبر مجموعة من أشعاره فى كتاب « الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر الهجرى »، وكان الشابى آنئذٍ دون العشرين من عمره . وفى عام ١٩٢٨ حصل على شهادة « التطويع » ، وهى أكبر شهادة كانت تُمنح لخريجى جامع الزيتونة ، وانطلق بعد ذلك فألقى محاضرة طويلة بعنوان « الخيال الشعرى عند العرب »، فأحدثت صَدًى قويًا فى الصحافة التونسية ، وكذلك الرأى العام الأدبى ، مما دفع إلى طباعتها فى كتاب مستقل .

وبالرغم مما لقيته آراء الشابى الجريئة فى هذه المحاضرة من نقد عنيف من الأوساط التونسية المحافظة ، فإنها ساعدت على التعريف بالشابى فى أقطار الشرق ، فكان لها الوقع الطيب لدى القراء فى كل من مصر وسوريا ؛ وبذلك أصبح اسم الشابى فى الصدارة بين شعراء تونس .

وفى عام ١٩٢٩ بدأت متاعبه وآلامه النفسية تظهر وتشتد ، فقد مات والده ، وأصبح مسئولا عن أسرة كبيرة ، ولكنه واجه هذه المصاعب برجولة، برغم ماكان يعانيه من ضعف فى القلب منذ الصغر، ذلك الذى حرمه من كثير من متع الطفولة والشباب ، ويبدو أن الأطباء نصحوه بعدم الزواج ، إلا أنه كان مرتبطاً بابنة عمه فى حياة أبيه ، ولم تطاوعه نفسه فى أن يلغى عملاً أراده أبوه ، فقد كان يحبه حبًّا كبيرًا ، وكان بارًّا به . وهكذا تم زواجه بها عام ١٩٣٠ ، حيث أنجبت له ولدين ، هما « محمد » و« جلال» .

وفى عام ١٩٣١ بدأت نوباته القلبية تشتد ، وتنغص عليه حياته وأفكاره: فنصحه الأطباء بالبعد عن أى عمل يرهقه جسديًّا أو عقليًّا ، ونصحوه كذلك بالحياة فى الريف ، فتنقل بين أجمل المصايف والمشاتّى فى تونس . وعاش فترة فى منطقة (المشروحة) من ولاية سوق أهراس بالجزائر ، غير أنه ـ مع كل هذا ـ لم يستطع أن ينقطع عن القراءة والكتابة ، وما يستتبعهما من تفكير مجهد ، فقد كان الاطلاع والإبداع بالنسبة إليه هما الهواء والماء والغذاء . إنه خلال السنوات الثلاث التى قضاها متنقلاً بين المناطق الريفية الجميلة ، مستمتعاً بكل مابها من نعم الطبيعة ـ أنتج أروع قصائده مثل : الجنة الضائعة ، نشيد الجبار، صلوات فى هيكل الحب ، أغانى الرعاة، إرادة الحياة ، الصباح الجديد ... الخ .

ولما اشتد به الألم عاد للعاصمة التونسية فى ٢٦/٨/ ١٩٣٤ ، حتى يتمكن من عرض نفسه على كبار الأطباء والمُتخصصين ، فأقام مدة بضاحية (إريانة) ، وعندما اشتد المرض دخل المستشفى الإيطالى ، حيث لقى ربه فى فجر يوم الاثنين ٩/ ١٠/ ١٩٣٤ . ولمكانته الشهيرة احتفظت إدارة المستشفى ببطاقة دخوله التى سُجل فيها :

الاسم : أبو القاسم الشابى ـ رقم (٢٥٦٧) .

العمر : ٢٦ سنة .

الدين : الإسلام .

الحالة : متزوج .

المسكن : إريانة .

تاريخ الدخول : ٣/ ١٠/ ١٩٣٤ .

الفحص الطبى : مرض القلب .

تاريخ الوفاة : ٩/ ١٠/ ١٩٣٤ .

وفى اليوم التالى لوفاته نقل جثمانه إلى مسقط رأسه ، فكان أن دُفن بالشَّابية ، حيث رأى نور الحياة لأول مرة .

ولمكانته العظيمة فى نفوس الأدباء والشعراء ، بل الناس جميعاً ، تبرع الأدباء التونسيون ببناء ضريح له ، أُحِيطَ بسياج ، وكتب عليه « رَوْضَة الشابى » مع بيتين من شعره على لوحة رخامية استقرت على صدر القبر ، واحتفل الأدباء بتدشين الروضة ، فأقاموا حول الروضة مهرجاناً أدبيًّا كان الأول من نوعه فى تونس ، وجُدِّد بناء الروضة مرتين : عام ١٩٦٤ ، وعام ١٩٩٤ ، تخليدًا لذكرى هذا الشاعر العظيم ، الذى ملأت كلماته جنبات الدنيا ، نغمات وارفة ، تعلن قوة الإرادة ، وحب الحياة . أعلنها فى شعره قائلا :

إذا ماطمحتُ إلى غايَةٍ ... ركبتُ المُنَى ، ونسيتُ الحذَرْ
ولم أتجنبْ وُعورَ الشِّعابِ ... ولا كُبَّةَ اللَّهَبِ المستَعَرْ
ومن لايحب صُعودَ الجبالِ ... يَعِشْ أَبَدَ الدَّهَرِ بين الحُفَرْ

حياة الشابى :

يذكر الأحياء من معاصرى الشابى أنه لم يتوظف ، ولم يرتزق من أى عمل آخر ، فقد عاش ـ بعد وفاة والده ـ على الدخل المحدود العائد من الإرث . وكانت حياته عادية لاعسر فيها ولايسر .

وقد كان نهماً للقراءة والاطلاع باللغة العربية ، المؤلَّف بها ، والمترجم إليها ، و كثيرًا ماكان يتألم ويندم لعدم تعلمه لغة أجنبية ، يطلّع من خلالها على ثقافة أجنبية ، يستخرج منها بتذوقه مايمكن أن يكون رافدًا لإبداعه وإبداع قارئيه ، غير أنه ـ مع ذلك ـ تأثر بالأدب الغربى المترجم ، حتى ليظن قارئُوهُ أنه مُلم بالأدب الغربى من لغاته الأصلية . كما كان تأثره كبيرًا بأفكار العقاد ، وطه حسين ، وأدب جبران ، ومطران ، وميخائيل نعيمة . وقد ظهرت هذه التأثرات فى آثاره الأولى ، إلا أنه سرعان ماتكاملت العناصر الفاعلة فى تكوين شخصيته الأدبية ، تلك التى جمعت بين تراث حىّ ومتجدد وأدب عربى وعالمى معاصر . فإلى جانب اطلاعه على التراث العربى وإبداعاته كان شديد التأثر والإعجاب بالأدب المهجرى ، والآداب الغربية المترجمة ، ووصل إعجابه إلى حد المغالاة التى عَبَّرَ عنها فى آرائه بكتابه . . الخيال الشعرى عند العرب، .

ولئن كان معظم الذين تأثر بهم الشابى ينتمون إلى المدرسة الرومانسية ، فإن تراثه وظروف مجتمعه مزجا أدبه بواقعية اجتماعية وإنسانية حية ، برغم الميل إلى التجريد والخيال المجنح . وفى خضم هذا النشاط الهائل تتدخل أحداث طارئة وحاسمة لتحول الشاعر عن مسيرته المنتظرة ، الشاعر القائد والأديب الذى يتزعم ثورة التجديد والإصلاح ، فى الأدب وفى المجتمع .

تدخلت الأحداث لتذهب بشاعرنا بعيدًا عن أهم طموحات الشعر والشباب ، بل والطموحات الوطنية الموعودة التى كانت تنتظره ، فبين عامى ١٩٢٨ ـ حيث تخرج فى المعهد الزيتونى و ١٩٣٠ حين تخرج فى معهد الحقوق ، حدثت أخطر عناصر التغيير فى حياة الشاعر . . ففى عام ١٩٢٨ بدأت طلائع المرض ترهق الفتى الشاعر ، وكانت كامنة غير واضحة عليه ، يغالبها شبابه المندفع ، ونموه الأدبى المتواصل ، ولكنَّ الأحداث سرعان ماحَوّلت الحيوية إلى خمود ، وبدأت فى إطفاء الشعلة المتوهجة ، فقد تعب قلبه ، ولم يعد قادرًا على القيام بوظيفته مع شاعر ضعيف البنية ، طويل القامة ، أسمر اللون ، حاد الذكاء ، شديد الحساسية ، يقول :

والشَّقِىُّ . . الشقى مَنْ كانَ مِثْلِى
فى حَسَاسِيَّتِى ، ورِقَّةِ نَفْسِى

فلا عجب إذا ماجاءت قصائده فى السنوات التالية طافحة بالألم والحزن والتوجع من قلبه الكسير العليل ، يقول :

مالآفاقك ياقلبىَ سُودًا . . حالكات ؟
ولِأَوْرَادِكَ بين الشَّوْك صفرًا . . ذَاوِيَات ؟
ولإِطْيَارِكَ لا تلغو ؟ فأين النغَمات ؟
مالمزمارِكَ لايَشْدُو بغير الشهقات ؟
ولأَوْتارِكَ لاتخفق إلاَّ شاكيات ؟
صَلِّ ياقَلْبى إلى الله . . فإنَّ الموتَ آت
صَلِّ ، فالنَّازعُ لاتَبْقَى له غير الصلاة

فى عام ١٩٢٩ توفى والد الشابى ـ بين يديه ، بعد مرض مزعج ، استمر أكثر من شهر ، وكان أعز عليه من نفسه ، فهدم مَوْتُ الوالد كل آمال شاعرنا الوفى له ، فى حياته ومستقبله ، وتحول بوفاة والده إلى شاعر مريض حزين ، يتغنى بالموت والخلود ، ويناشد القلب الجريح ، مترقباً فى شوق ، ومناديا فى حرارة ـ صباحه الجديد .

ولسبب مَّا ، وربما لأكثر من سبب ، أقبل الشابى على الزواج سنة ١٩٣٠ من ابنة عمه المخطوبة له فى حياة والده ، وذلك برغم نصيحة الأطباء له بعدم الزواج ، على ماذكرنا سابقاً . .

فهل كان الشاعر يائساً من شفائه من مرضه ، ولذا فضل أن يموت بالزواج ؟

أم أن الوفاء والحب لوالده حمله على مافعل ، مضحياً بحياة لاأمل فى طولها واستمرارها ؟

مهما كان السبب ، فقد واجه شاعرنا متاعب صحية بعد زواجه ، تهدأ حينا وتزيد أحياناً أخرى ، برغم العلاج المستمر ، والإقامة فى المناطق الصحية ، البعيدة عن ضوضاء المدينة وتلوثها ، كما أشار عليه الأطباء .

لقد أنجب الشابى ولدين من زوجته التى ماتزال على قيد الحياة ، وخلف ـ معهما ـ آثارًا أدبية عديدة ، ازدادت مع الأيام انتشارًا ، ليصبح مع كل ذكرى تقام له أكثر ذيوعًا وشهرة .

لقد ترجمت بعض قصائده إلى كثير من اللغات الحية ، وبخاصة الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية . وأهم إبداعات الشابى تمثلها أشعاره ، التى جمعها بنفسه فى ديوانه « أغانى الحياة » ، والذى طبع عام ١٩٥٥

متضمناً اثنتين وتسعين قصيدة ومقطوعة ، ثم أعيدت طباعته مرات ، مضافاً إلى القصائد الأولى قصائد أخرى لم يضمِّنها الشاعر الديوان .

لقد كان الشابى عبقريًّا ـ فى مجال الشعر ـ بكل المقاييس ، يتمثل ذلك فى كل قصيدة ، بل فى كل بيت . ولئن كانت مأساته فى أنه لم يعش إلاَّ كما تعيش الأزهار والطيور ، فإنه لم يتغنَّ شاعر بالحياة والفرح ، وبالألم والموت ، كما تغنى الشابى . وأيًّا كان منهج الناقد الذى يتناول شعره ، أو ميل القارىء فإن قراءة قصيدة واحدة من شعر الشابى تحمل الإنسان على الإعجاب به ، والتجاوب معه ، والإحساس القوى بأنَّ خَلْفَ الكلمات صورًا ساحرة فريدة، وموسيقى جاذبة ، تترجم أصدق المشاعر ، وأنبل الميول الإنسانية .

إنه يتغنى غناءً رائعاً بالكون والطبيعة ، ويقدر المرأة والطفولة والحب والجمال ، والحق والحرية والعدل ، والشباب والفنون ، وكل المثل العليا للإنسان فى أى مكان .

ولئن كانت السمة الغالبة على إبداع الشابى هى الشعر، فإن له مجموعة من الأعمال النثرية التى تمثلت فى مجموعة من المحاضرات والمقالات الأدبية والنقدية ، إلى جانب ـ رسائله الأدبية مع معاصريه فى تونس ومصر وسوريا ، ويومياته التى دَوَّنَها فيها لايزيد على نَيِّفٍ وثلاثين يومًا ، وخواطره الأدبية والاجتماعية ، التى يقترب أسلوبه فى بعضها من الأسلوب القصصى ، ولكنه يبقى فيها الشاعر ، صاحب اللفظ الأنيق ، والعبارة الجميلة ، والأسلوب الممتع . ويقف بحثه القيم « الخيال فى الشعر العربى » ، ليمثل تجديدًا فى منهج البحث ، وأسلوب النقد الحديث ، مما جعل منه رائدًا لحركة النقد الأدبى فى تونس .

وجدير بالذكر والتأمل أن الشابى ألقى بحثه هذا وهو فى العشرين من عمره ، أى فى الذروة من حماس الشباب وثورته ، لذا كان قاسياً فى أحكامه على الشعر العربى القديم ، قاصدًا تحريك البيئة الأدبية الراكدة فى تونس ـ آنَ ذاكَ ـ حتى يهزها هزًّا عنيفاً قويًّا ، وبدون ذلك لم يكن أحد من مواطنيه ليسمعه أو يحاوره .

لقد عنى أكثر من باحث ومترجم بدراسة أشعار الشابى ، وعقد المقارنات بينه وبين آخرين ، سواء أكانوا عرباً أم غربيين . ولعل أقرب المقارنات كانت بالشاعر الإنجليزى جون كيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) . كما كان أسبق المترجمين لأشعاره صديقه (محمد البشروش) ، ثم المستشرق الإنجليزى أرثر أربرى الذى ترجم مقطوعتين للشابى إلى الإنجليزية عام ١٩٥٠ ، وهما : « أنا أبكيك للحب » ، و « إلى طغاة العالم » .

لقد مضت أكثر من أربعين سنة على ترجمة أربرى ، وعلى مقارنته بكيتس ستون سنة ، تطورت خلالها الاهتمامات بالشابى ، وترجمة أشعاره إلى معظم اللغات التى تؤكد أنه شاعر عالمى وإنسانى من طراز فريد . وهو لهذا جدير بأن يقرأه محبو الشعر فى كل مكان .

هذا الإنتاج الزاخر ، والنبوغ الباكر ، كان لابد أن يثير حوله ضجة حسد، غلفت نفسها باسم النقد ، ولم تتمكن من ستر الهوى والمحاربة العلنية ، ليس فى ميدان الأدب وحده ، بل أيضاً فى المجالات الخاصة ، فكان التعريض حتى عند انتقال الشاعر من بلده ، أو إقامته بالعاصمة للاستشفاء . . ولكن كل هذا لم يزد شاعرنا إلا اعتدادًا بنفسه وبقيمته الأدبية ، فكان يزداد ترفعاً كلما ازدادوا تهجماً . . يقول فى ذلك :

وأَقُولُ للجَمْعِ الذين تجشَّمُوا (١)   هَدْمِى ، وودُّوا لو يخرُّ بِنَائى
ورَأَوْا عَلَى الأشواكِ ظِلِّى هامدًا   فتوهَّمُوا أنى قضيتُ ذَمَائى (٢)
وغَدَوْا يَشُبُّونَ اللهيبَ بكلِ ما   وجدوا ، ليَشْوُوا فوقه أَشْلائى (٣)
ومَضَوْا يمدُّونَ الخِوان ليأكلوا   لحمى ، ويَرْتَشِفُوا عليه دمائى (٤)
إنِّى أَقُولُ لهم - وَوَجْهِىَ مُشْرِقٌ   وعَلَى شفاهى بَسْمة استهزاء :
إنَّ المعاول لاتهدُّ مَنَاكِبِى   والنارُ لاتأتى عَلَى أعضائى
حتى ولو أمسيتُ جسماً ميتاً   مُلْقًى لعصف الزَّعْزَعِ النَّكْبَاء (٥)
فارموا إلى النار الحشائش وَالْعَبُوا   - يامعشرَ الأطفال - تحت سمائى
وإذا تمردت العَوَاصِفُ وانْتَشَى   بالهولِ قَلْبُ القُبَّةِ الزرقاء
ورأيتمونى طائرًا مُتَرَنِّماً   فوق العَواصِف فى الفضاءِ النائى
فارموا على ظِلِّى الحجارة واختفوا   خَوْفَ الرياح الهُوج والأنْوَاء
وهناك فى أَمْنِ البُيوتِ تَبَادَلُوا   غَثَّ الحديث ، وَمَيِّتَ الآراءِ
وتَرَنَّمُوا ماشِئْتُمو بشَتَائمِى   وتجاهَرُوا ماشِئْتُمو بعَدائِى
أمَّا أنا فأُجيبكم من فوقكم   والشمس ، والشفق الجميل إزائى
مَنْ جَاشَ بالوَحْيِ المقدَّسِ قَلْبُهُ   لم يَحْتَفِلْ بحجارة الفَلْتاء (٦)

---

(١) تجشموا : تكلفوا على مشقة .

(٢) ذَمائى : الذَّمَاءُ بقية الروح .

(٣) أشلائى : أعضائى بعد البِلى ، ومفردها شِلْو .

(٤) الخوان : مائدة الطعام .

(٥) الزعزع النكباء : الريح الشديدة التى تنتج عنها نكبات وأضرار .

(٦) الفلتاء : المصوبة بغير هدف .

وهكذا مضى شاعرنا أبو القاسم الشابى ، يمتطى جواد المجد والتفوق لايعبأ بعبث العابثين ، ولاتتزعزع عزيمته عن أدء واجب الحق مهما كانت وعورة الطريق .

مدخل إلى أدبه :

من أجمل مايلفت الانتباه فى أدب الشابى ـ شعره ونثره ـ عمق المعنى ، وجمال الاستعارة ، مع بساطة فى الأداء ، وسهولة فى التركيب . أمَّا ألفاظه فقد كانت بعيدة عن الغرابة إلاَّ قليلا مما يسهل إدراك معناه . إنه لا يفتعل اصطياد الألفاظ ، بل ينتخبها ، ليستعمل القريب منها ، والذى يحمل معنى مهيباً عفيفاً عميقاً ، ومن ذلك :

كنتُ فى فَـجْرِىَ الموشـــح باللأحـ   لام عِـــطْرًا يـرفُّ فَـــوْقَ وُرُودِك
حـالمـــاً ، يَنْهَلُ الـضِّيَاءَ ويُصْغِى   لَكَ ، فى نَـشْوَةٍ بِوَحْـــىِ نشـــيدك
ثُمَّ جــادَ الـدُّجَى ، فَأَمْسَيْتُ أَوْرا   قــاً بــدادًا مـــن ذَابِلاَت الـــوُرود

فالفجر والعطر ونهْل الضياء والدجى والأوراق المبددة كلها ذات معان قريبة ، ولكنها أتت داخل نسيج جديد طريف . إن الأسماء التى تحمل مدلولات لأشياء مادية ، تتحول فى قاموس شاعرنا إلى معان نفسية ، تصلح للدلالة على العاطفة والشعور ، فكأن مشاعره كل شىء ، وكأنما لم توضع كل تلك الأسماء إلا لتدل على هاتيك الإحساسات الدقيقة الرفيقة اليقظة . إنه يجمع كل مفرداته بمدلولاتها العظيمة الهائلة ، وأشيائها الرقيقة الدقيقة ، يجمعها ليستدعيها متى شاء ، ويؤلف بينها تأليفاً يلفت قارىء أدبه إلى تلك الأنحاء الخفية فى مساحات الشعور داخل نفسه . . وإنه ليصف أدبه قائلا :

أشـدو بـــمـوسيقى الحياة ووحْيها   وأذيـــب رُوحَ الـكَــوْن فى إنشـــادِ

إنه حقًّا يذيب روح الكون فى أدبه الباهر ، وأسلوبه العظيم ، وترجمته لما يعتمل فى ضميره المصقول ونفسه الحساسة ، وهو يقول :

والشـقـىُّ الشقـىُّ مَـنْ كـان مِثْلى فى حَـساسيَّتى ، ورِقَّــة نَفْــسى

إن جميع الكائنات الحية وغير الحية ، المعروفة الكُنْه والمجهولة الذات ، من صخر وزنابق ونايات ، إلى جنة وجنّ . . كلها تتحول عنده إلى معان نفسية تعبر عن آلامه وآماله ، بل إنها تجوس أكثر خلال فجيعته فى الحياة ، وظروفه فيها . وهو مع ذلك متفائل يحاول دفع الحياة دائماً إلى الأمام . إنه لايؤمن بكفاءة حدود الألفاظ كما وضعتها القواميس ، ثم إنه لايقف عند حدود التعبير الاستعارى العادى ، والكناية المعروفة بل إنه يستعمل ما أسماه الخيال الشعرى ، يصور صورة خيالية ، ويرمز بها لصورة واقعية ، رمزاً شفافاً لافتاً الإدراكَ ، موضحاً الألوان الخفية فى تلك الصورة الواقعية التى أراد التعبير عنها .

ففى القصيدة التى تهكم فيها على حاسديه ، والتى أوردناها قبل ذلك ، لايعبر عن نفسه إلاَّ بالطائر المحلق فى قبة الفلك ، وفى حين يرشق الحاسدون ظله بالحجارة ، ثم يفرون من العاصفة ، مختبئين فى قعر البيوت ، ليتبادلوا شتمه فى أَمْنٍ واطمئنان ، وهو يخفق من فوقهم فى سمائه ، وعلى يمينه الشمس المتوهجة ، وعلى يساره الشفق الجميل . فالشمس والشفق لايعبران مجازياً عن الحق الذى يراه بجانبه فحسب ، بل إنهما جزء من نسيج تصويرى يجمع الشمس والشفق والمائدة والحلم ، والخوف والبسمة ، نسيج لا يتجزأ ، يشير إلى مافى الرجل من نخوة واعتزاز وتمسك بالحق ، إلى جانب مايبرزه من جُبْن شانئيه ، وكيدهم الضعيف ، ونارهم المتأججة .

إن الشابى كان حياة كاملة ، يريد أن يبثها فى كل ماحوله ، لشعوره بركود بيئته ، وضيقه بالجامدين المتزمتين ، فنفَّس عن قلبه الدافق

بالإحساس بهذه القصيدة «النبى المجهول» التى نجتزى منها قوله :

أيها الشعبُ ، ليتنى كنتُ حطَّا   بًا ، فَأَهْوى على الجذوع بفَأْسِى !
ليتنى كنتُ كالسُّيولِ إذا سالت ، تهدُّ القبورَ رمسًا برمْسِ !
ليتنى كنتُ كالرياح فأطوى   كل مايخنق الزهور بنحسِ (١) !
ليتنى كنتُ كالشتاء أُغَشِّى   كُلَّ ماأَذْبَلَ الخريفُ بقرْسى !
ليت لى قوة العواصف ياشَعْـ   ـبى ، فألقى إليك ثورةَ نفسى !
ليت لى قوة الأعاصير . . لَكنْ   أنت حَىٌّ ، يقضى الحياة بِرَمْسِ (٢)
أنتَ رُوحٌ غبيَّةٌ تكره النُّو   رَ ، وتقضى الدُّهورَ فى لَيْلِ مَلْس (٣)
أنتَ لا تُدركُ الحقائقَ إنْ طا   فَتْ حواليْكَ ، دون مسٍّ وجسِّ

ها أنا ذَاهِبٌ إلى الغَاب ياشَعْـ   ـبى لأقضى الحياة وَحْدِى بيأسِي
ها أنا ذاهب إلى الغاب عَلِّى   فى صَميمِ الغابات أدفِنُ بُؤْسى
ثم أنساكَ ماستطعتُ فما أنْـ   ـت بِأَهْلِ ، لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيد   ـدى ، وأفضى لها بأحزان نفسى
فهى تدرى معنى الحياة وتدرى   أنَّ مَجْدَ النفوس يقظةُ حِسِّ
ثم أقضى هناك فى ظُلْمة الليـ   ـل ، وألقى إلى الوجود بيأسى
ثم تحت الصنوبَر الناضر الحلـ   ـو ، تَخُطُّ السيولُ حفْرةَ رَمْسِى
وتظل الطيور تلغُو على قبـ   ـرى ، ويشدو النسيم فوقى بِهَمْسِي
وتظل الفصول تمشى حَوالَىَّ   كما كُنَّ فى غضَارة أَمْسى

---

(١) النحس : الريح الباردة عند إدبارها .

(٢) الرمس : تراب القبر .

(٣) الملاسة ضد الخشونة .

أيهـا الشَّعْبُ أَنْـتَ طفـلٌ صغيرٌ لاعــبٌ بالتُّراب ، والليل مُغْسى
أنــت فى الكَـوْن قُـوَّةٌ لم تَسُسْهَا فــكــْـرةٌ عبــقــريَّةٌ ذاتُ بأْسِ
أنــت فى الكـون قـوة كبَّلتــهـــا ظُلُــماتُ العصورِ من أمْسِ أمسِ
والشَّــقِىُّ الشـقَىُّ من كـان مثلى فى حســاسيَّتى ، ورِقَّــة نفْســى

إن الشاعر الضعيف هو الذى يهتم بنفسه فقط ، ويظل ـ من خلال ذلك ـ طالبَ جاهٍ ومال ، فإذا شكا فإنه يشكو سوء حاله ، غير أن شاعرنا كان ذا شعور يسمو به فيحتضن الناس بجناحيه ، بما فيهم الطيب والشرس، الوديع والمشاغب ؛ لأنه كان صاحب رسالة ، أنْعِمْ بها من رسالة!

نظر أبو القاسم فأبصر وطنه يضيق بِهمَّتِه ، فأرسل شعره إلى المشرق ، حيث لا مطمع للسَير فى جانب فحول الشعراء هناك ، فنافس المجلقين ارتفاعاً ، وساوَى الأقوياء زندًا وباعاً . وبينما كانت سهام قومه ترشقه من الخلف ، حقدًا عليه ، وعلى نبوغه ، كان يزداد مضاء فى طريقه ، شأن الجبارين ، حتى خلَّف لنا ديوانه الشعرى النفيس . لقد ضرب ـ فيما أبدع من شعر ـ مثلا للشباب فى الإقدام والطموح ، والاستهانة بكل العقبات . . وما أكثر شبابنا الذين يتطلعون إلى النهوض ، حبذا لو امتلكوا مثل عزيمة الشابى.

لقد كان الشابى عربى الدم والملامح واللسان ، إنه قطعة فى نسيج قومه، لايقصدغيرهم فى كل مايقول ، حياتهم ومشاكلهم ، ورغبته الجامحة فى النهوض بهم ، وتجديد حياتهم .

وقد كان أهم مظهر للتجديد عنده طريقته الفنية ، التى كان يتوخى فيها البساطة ، مع مالديه من قدرة ، فتأتى عبارته سلسة ، بعيدة عن الممارسات

البديعية ، والمحسنات المتكلفة . إنه يكتب من فيض الروح . ولغةُ الروح لغة كل زمان وكل مكان ـ ومهما تباينت اللغات ، واختلفت الأجناس ، وتباينت الألسن ، فالجوهر واحد ، والروح واحدة ، والبشر واحد .

. وثمة ميزة أخرى لأبى القاسم الشابى : ذلك أنه خالف المجددين : الذين يتناولون شعوبهم ساخطين ، ساخرين من أوضاعهم ، فإن أقسى كلمة نراها فى ديوانه هى قوله للشعب : « أنت روح غبية تكره النور » ، فهذه عبارة وحيدة ، لاتُقاس بما يقوله الآخرون ، ولاتزيد على ماقد يقوله الأب لابنه فى مجال التربية . إنه يملك نفساً عَفَّةً خَيِّرَة ، فلدى ألمه ويأسه يصدر قوله :

ها أنا ذاهب إلى الغاب ياشعـ ـبى لأقضى الحياةَ وَحْدِى بِيَأْسِي

لقد كانت رسالة الشاعر عند الشابى ، هى تلك التى تتوجه إلى أرحب آفاق الحياة ، وتشعر بتيارات الوجود والكون ، وتدرك المعانى والأصوات ، وتنسى الوجود الإنسانى لحظة ، لتَغْرق فى عالم الجمال المطلق الذى يخلقه الشاعر حواليه ، ويسبغه على نفس قارئه . لقد ظهر الشابى وسط شعراء تنحصر رسالتهم فى قول الشعر ، يسترضون به الغاضب ، ويستعطفون العاتب ، وَيَسْتَمْنحُونَ كُلَّ مَنْ يَمْنَحُ . وربما جَاء قوْلُ بعضِهم إزجاءً للوقت ، وإظهارًا للقدرة على المحافظة على الأوزان ، ورصف القوافى ، ونحت العبارات والكلمات ، أمَّا الشابى فقد كان يسمع الشعر فى ضجة الريح ، وهدير البحر ، وبسمة الوردة الحائرة وقد تحلق فوقها النَّحْل . كان الشعر عنده نغمة مُفردة يرسلها الطائر فى الفضاء الفسيح ، وتُحدثها وَسْوَسَة الجدول الحالم المترنم بين الحقول ، وهدير النهر المتدفق ، وطلوع الشمس ، وخُفوت النجم . إنه فى كل مايرى ويسمع ، ويكره ويحب ، ويألف

ويخشى . إن الشعر عنده فؤاد يتغنى ، ووجود يترنم :

ياشَعرُ أنتَ فم الشُّعورِ وصَرْخَةُ الروح الكَئِيب
ياشعر أنت صَدَى نحيبِ القَلْب والصَّبِّ الغريب (١)
ياشعر أنت مَدامِع عَلقَتْ بِأَهْدَاب الحياة
ياشعر أنت دَمٌ تفجَّرَ مِنْ كُلُومِ الكائنات (٢)

ويقول أيضًا :

أنتَ ياشعرُ صفحةٌ من حياتى   أنت ياشعر قِطْعَةٌ من وُجودى
فِيكَ مافى جَوانِحِى مِنْ حَنِين   أبدى إلى صَمِيمِ الوُجُودِ

ولقد عرَّف الشاعر قائلا :

«هو ذلك الخلَّاق الذى يبعث فى آثاره شُعلة من روحه ، ونسمة من حياته ، فإذا هى ناطقة تعبر فى قوة وإبداع عمَّا فى هذا الوجود من سحر وفن وجمال ، وتتغنى بما يزخر فى أعماق القلب البشرى من عطف وبغض ، ويأس وحنين ، ولذة وألم ، وغايات ومُثل . وإنه ذلك الجبار الذى يرتفع بقلبه فوق البشر ، ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح ، وحيرة الفكر التائه بين نواميس العالم ، وجمال الوجود » .

ويزيد الشابى قائلا :

«والشعراء هم أولئك الذين يرتفعون بأرواحهم إلى آفاق فسيحة أرحب وأسمى من سماء البيئة المحدودة ، متغزلين بدنيا غريبة رائعة لم تخلقها الحياة إلاَّ فى أعماق قلوبهم الملأى ببهاء الكون ، ومثل الحياة العليا » .

---

(١) الصب : المشتاق .

وهِم أيضاً :

« أولئك الموهوبون الذين يسبقون عصورهم ، فيغنون أشهى أغانى الجمال ، وأعذب أناشيد القلب البَشَرى لأجيال لم تُخلق بعد . وهم أولئك الذين لايصورون عادات العصر المتغيرة المتحولة ، بل عادات الحياة الخالدة على الدهر . ولا يَصِفُونَ أحاديث الوعاظ والمتكلمين والمتفلسفين، بل أحاديث نفس الإنسان التائهة فى بيداء الزمان ، ولا يعلنون أسرار القصور والمجالس ، بل أسرار الأزل والأبد » .

هذه هى فكرة الشابى عن نفسه كشاعر ، وعن سائر الشعراء كما يود لهم أن يكونوا ، يرتفعون بأُمَّتِهم إلى المثل العليا ، حتى ترتفع معهم الحياة .

إنه يقدر للحب قيمته فى دفع عجلة الحياة ، وهل الحب إلاَّ احترام المرأة، التى اعتبرها الأدب العربى فى بعض مراحله ملهاة بيد الرجل . إن جمال المرأة فى نظره فن متجرد عن تلك المظاهر المادية التى تتصل بالجسد . إن النظرة السامية للمرأة يزدوج فيها الحب مع الإجلال . إنها قطعة من فنون السماء يلتمَس لديها من الإلهام ماتضن به ينابيع الوجود . . يقول :

أنتِ ! ماأنتِ ؟ أنت رسمٌ جميلٌ   عبقرىٌّ من فن هذا الوجود
فيكِ مافيكِ من غموض وعمق   وجمال مقدس معبود

إن الحياة تحلو لديه عندما يرى محبوبته ، ويملأ نفسه صباح الأمل ، وتنمو بصدره وُرُود التفاؤل :

أَرَاكِ فَتَحْلُو لَدَىَّ الحياةُ   ويملأُ نَفْسِي صَبَاحُ الأمَلْ
وتَنْمُو بِصَدْرِى وُرُودٌ عِذَابٌ   وتحنُو على قَلْبِىَ المُشْتَعِلْ
فأعبد فيكِ جمالَ السماء   ورِقَّة ورد الربيع الخَضِلْ
ويفتننى سِحْرُ تلك الشِّفاه   ترفرف من حولهنَّ القُبَل

وأيضاً :

فتملكنى نشوة لاتُحَدُّ   كأنىَ أصبحتُ فوقَ البَشَر
أَوَدُّ بروحى عناقَ الوُجودِ   بما فيه من أَنْفُسٍ وشَجَر
ولَيْل يفرّ ، وفجْر يكُرّ   وغيم يوشِّى رداء السَّحَرْ

ليس فى حب الشابى أول ولا آخر ، ولا معالم وكلمات تقال بين المحبين ، وآلام تعقب الصدّ ، وفرحة تجىء مع الوصال ، وإنما كان حبه فكرة لامرأة ، يصور مثلا أعلى لا شخصاً من لحم ودم . وربما كانت قثيارة حبه تعزف فى حرارة ولهفة شعره الغزلى ، لأنه كان محرومًا من الاتصال بالمرأة التى توحى إلى الشاعر ، وتوجه عاطفته الوجهة الطبيعية . ومع هذا الحرمان فقد نطق حنينه إلى المرأة بقصائد سامية بديعة ، ارتفعت إلى مستوى الأدب العالمى ، بل التقت معه ، فقصيدته « ألحان السكرى » تتناغم مع الشاعر «لامَرْتين » فى قصيدته « البحيرة » ، بل إن الشابى زاد معنى أعلى وأسمى من ذلك الذى بنى عليه « لا مرتين » . كان لا مرتين يصيح بالزمن قائلا :

« أيتها الأرض أوقفى دورانك ، وأنت أيتها الساعات أوقفى جريانك ، ودعينا نتمتع بعاجل لذَّاتنا ، وننعم بأجمل أيام شبابنا »

وقال الشابى :

قد سَكِرْنَا بحبِّنا واكتفينا   طفح الكأس ، فَاذْهَبُوا ياسُقَاة
نحن نحيا فلا نريد مزيدًا   حَسْبُنا مَا مَنَحتِنَا ياحَيَاة

ويقول من تلك القصيدة مايشبه صيحات لامرتين :

أيها الدهرُ ، أيها الزمن الجا   رى إلى غير وجهة وقرار
أيها الكون ، أيها الفلك الدوَّ   ار بالفجر والدُّجَى والنهار
أيها الموت ، أيها القدر الأعـ   ـمى ، قِفُوا حيث أنتمُ أَوْ فسيروا
ودعونا هنا تُغَنِّي لنا الأحـ   ـلام والحب والوجود الكبيرُ
وإذا ما أبيتمُ . . فاحملونا   ولهيب الغرام فى شَفَتَيْنَا
وزهور الحياة تعبق بالعِطْـ   ـر وبالسِّحْر والصبا فى يدينا

لقد كان « لامرتين » يشعر بمسيرة الزمن فى وجود حبيبته ، بل ويُشفق من فرار الساعات ، ويحاول ـ جاهدًا ـ أن يطلب برهة فلايظفر بها ، فى حين كان الشابى ذاهلا فى سَكْرته عن مضيِّ الزمن ، لقد نسى وجوده فى وجود المحبوب ، ولذا فقد استوى عنده سير الزمن أو توقفه ، دوران الكون أو تعطله ، فقد امتلأت كأسه ، فسكر بحبه واكتفى .

لقد كان الشابى شاعرًا متأمِّلاً ، محُبًّا للحياة ، مترجماً مراحلها فى حياته القصيرة ، التى كان يكثر فيها من التأمل فى الطبيعة ، لأن فيها كل معانى الوجود والنشأة ، ففى الطبيعة طفولة وشباب وكهولة كما فى حياة الإنسان ، ولكن الذى يغلب عليها هو هذا الجانب الناضر ، الذى يمثل الطفولة حيناً ، والشباب أحياناً أخرى . لقد أعجب بالطبيعة لأنها دائمة التجدد بأزهارها وجداولها ، ولهذا كانت تجيش فيه ذكريات قديمة ، هى ذكريات طفولته ، ذلك العهد الذى كان يمرح فيه دون سأم أو كلال ، يقول :

قَدكُنْتُ فى زَمَنِ الطفولة والسَّذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابلُ والجداول والزُّهُور
لانحفل الدنيا تدور بأهلها أو لاتدور

ثم يصف مرحها وسعادتها فى أبيات متفردة الجمال والبساطة ، يقول :

أيامَ لم نعرف من الدنيا سِوَى مَرَح السُّرور
وتتبُّع النَّحل الأنيقِ ، وقطف تيجان الزهور
وتسلُّقِ الجبلِ المكلَّلِ بالصنوْبَرِ وَالصخور
وبناءِ أَكواخِ الطُّفُولَةِ تحت أعشاش الطيور
مسقوفةً بالوَرْدِ والأعْشَابِ والورَق النَّضِير
نبنى فتهدمُها الرياح فَلا نضجُّ ولا نَثُور
ونَعُود نضحك للمُروجِ وَ للزَّنَابِق والغدير
ونخاطبُ الأصْداء وهى تَرِفُّ فى الوادى المنير
ونعيد أغنية السَّواقى وهى تلغو بالخرير
وَنَظَلُّ نركُضُ خلفَ أسرابِ الفراش المستطير
ونمرُّ مابين المروج الخُضر فى سَكَر الشعور
نشدو ، ونرقُص ـ كالبلابل ـ للحياة وللحُبور

ثم يتذكر أن جنة الطفولة ـ التى تحن إليها نفسه قد ضاعت ، فيذوب قلبه حسرة ، ويصرخ :

آهِ !! تَوارَى فَجْرِىَ القُدسِىُّ فى ليلِ الدُّهُور
وفَنَى ، كما يَفْنَى النشيدُ الحلْوُ فى صَمْتِ الأَثير

أَوَّاهُ ! قـد ضاعـت علـيَّ سعـادةُ القـلـبِ الغـريـر
وبقـيتُ فى وَادِى الزمـان الجَهْمِ أَدْأَبُ فى المسير
وأَدُوسُ أشـواكَ الحـياةِ بقَلْبِىَ الـدَّامِى الـكَسِيـر

ولكنه سرعان مايفهم أنه من العبث أن يبكى عهدًا مضى ، إذ يكفيه منه أنه عاشه على أحسن حال . . لقد رفرف آن ذَاك بأجنحة الخيال مع الملائكة الأطهار ، فليندفع الآن إلى تيار الحياة ، فهى التى ستعطيه مايبكيه فى أمسه الضائع . . الحب! ذلك الذى كان ضوء فجره ، وشَذَا عطره .

لقد اشتمَّ البعض أنه كان متشائماً ، وما أردتُ بالحديث عن حبه المرأة ، وحبه ذكرياته الحبيبة زمن الطفولة ، إلا أن أدفع عنه هذه التهمة . . التشاؤم. فهل يمكن أن يتبرم بالحياة من يعشقها ؟ وهل من المعقول أن يسخط عليها من يعيش فى نشوة وسط أضوائها وألوانها وألحانها ؟ أقول : كلا، حتى لو كانت الحياة تضغط عليه ضغطاً شديدًا . . لقد ظل إلى آخر نَفَس فى صدره يدفع الألم ، ويناضل لينتصر على الضعف ، فهو الذى يقول مُتغنياً :

سأعيشُ رَغْمَ الـدَّاءِ والأعـداء   كالنسْرِ فـوقَ القِمَّة الشمَّاء
أرْنُو إلى الشمس المضيئة هَازِئاً   بالسُّحبَ والأمطار والأنْواء
لا ألمح الظلَّ الكئيب ، ولا أرَى   ما فى قرار الهُوَّةِ السوداء
وأعيشُ فى دنيا المشاعر حالمًا   غَـرِدًا ، وتلك طبيعة الشعراء
أَشْدُو بموسيقى الحيـاة وَوَحْيها   واذيبُ روح الـكـون فـى إنشاء

لقد استطاع الشابى أن يخلق لنفسه وسطاً شعريًا خاصًا به ، حتى إنه كان يختار أوزان قصائده وأبحرها اختيارًا خاصًا ، كما يفعل كبار الشعراء .

لقد فتح الشابى مجالاً رحباً فى دنيا الشعر العربى ، ووثب به وثبة بعيدة، كان رائده فيها : « عش بالشعور وللشعور » . لقد عاش كالزهرة الغَضَّة ينهل من الضياء والجمال ، ليجعل من قفر الحياة وَاحَةً جميلة ساحرة .

الشعر :

إن الشاعر المطبوع هو الذى يستطيع أن يترجم خلجات النفس الإنسانية، ويصور الطبائع البشرية المتباينة ، فى أداء وافٍ ، وتركيب سليم . . هكذا كان الشابى ، يجمع ماتبعثر من الأحاسيس ثم يصورها ، ويخلع من روحه عليها طبيعته الشاعرة ، التى تتعمق فى تفسير مايجيش فى النفس تفسيرًا يجعلنا نعجب بتلك العبقرية الناضجة لشاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .

يتساءل الناقد الإنجليزى « ماثيو أرنولد » فى دراسته عن الشاعر «كيتس» . . هل كان كيتس شيئاً آخر غير كونه شاعرًا ؟ . ولو جاز لنا أن نستعير هذه العبارة وقلنا : هل كان الشابى شيئاً آخر غير كونه شاعرًا ؟ لوجاز لنا ذلك لكنا معبرين ـ بصدق ـ عن الشابى ، وذلك التشابه بينه وبين «كيتس» ، ليس فى الشعر فحسب ، بل أيضاً فيما كان من وفاتهما فى سن متشابهة . لقد توفى الشابى وعمره ست وعشرون عاماً ، وقبض «كيتس» شاعر إنجلترا الكبير المبرز فى مثل هذه السن ، فتكررت بذلك وفاة شاعر عبقرى فى القرن التاسع عشر مع مثيلتها فى القرن العشرين عندما توفى الشابى . لقد راحا ضحية داء أقضَّ مضجعهما ، وعجَّل بسفرهما إلى وادى

الموت ، فى وقت انتظر قراؤهما المستقبل الذي كان يبشر بضروب شتى من التجديد .

لقد كرَّم الإغريق شعراءهم ، وأنزلوهم منزلة رفيعة لاتصل إليها منزلة ، وكذلك فعل الرومان ، حيث كانا يعظمان رسالة الشاعر ، ولعلنا ندرك ـ أيضاً ـ هذه القيمة فيما قاله « تنيسون »[1] فى تصوير الشاعر ، عندما يقول : « وُلِدَ الشاعُر فى محيط ذهبى ، تتلألأ فوقه النجوم المذهبة ، وقد ارتفعت نفسه فوق حقد الحاقدين ، وأَزْرَتْ بمكر الماكرين ، وتعلقت بعشق المحبين». وما أوردتُ هذا إلا لأنها أوصاف تلتقى مع ما كان عليه الشابى من سريرة ناصعة ترتفع فوق الحقد ، وتكره الضغينة . . إنه بهذا يتجرد من مادية الحياة ، وينساب مع خياله نحو عوالم فكره ، فيرى بعقله الباطن ماتعجز العين المجردة عن رؤيته . انظر إلى قول الشابى :

أنت تُحيين فى فؤاديَ ماقد   مات فى أمْسِيَ السعيدِ الفقيد
بعد أن عانقتْ كآبةُ أيّا   مِى فؤادى ، وألجمتْ تغريدى

ولو بحثنا فى شعر الشابى لوجدنا صورًا فتانة فى المعانى ، مبتكرة فى الأخيلة ، فمن الذى يقول مثلما قال الشابى :

فى فُؤادى الغريب تُخْلَق أَكْوَا   نٌ عن السحر ، ذاتُ حُسْنٍ فريد
وشموسٌ وَضَّاءَةٌ ونجومٌ   تنثر النورَ فى فضاءٍ مديد
وربيعٌ كأنه حُلُمُ الشَّا   عِرِ فى سَكْرَةِ الشَّبابِ السَّعِيد

---

[1] ارجع إلى ديوان تنيسون تحت عنوان : The Poet حيث يقول :
(The Poet In a golden clime was born with golden stars above,
Dowr,d with The hate of hate , The scorn of scorn The love of love) .

إلى أن يقول :

وطُــيــورٌ ســحــريَّةٌ تتــناغَــى   بــأنَــاشــيدَ حُــلْــوَةِ التغريــد
وقُصورٌ كأنها الشَّفَق المَخْـ   ـضُوبُ أو طَلْـعَة الصباح الوليد
كل هذا . . يشيده سحرُ عَيْنَيْـ   ـكِ وإلهـامُ حُسْنِـكِ المعــبود

إن البيت الأخير يكثف تجربة الشابى ، والتكثيف كان ظاهرة فى شعره ، تراه مبثوثاً على نحو متميز ، يشير إلى أن خيال الشابى كان يتولد من ذاته حسب التيار الذى يجرى فيه السياق ، ولهذا لم يكن خيال الشابى تلفيقيًّا ، بمعنى أن يجمع بين المؤثرات الثقافية وتجارب الحياة اليومية ، فإنه كان يتمهل ويتأنى فى الاختيار .

وقد تحدث بعض النقاد عن أن هناك مؤثرات فى شعر الشابى ، من شعر جبران خليل جبران وشعراء المهجر عامة ، وغيرهم ، غير أن تلك المؤثرات تظل إشارات عابرة تدخل فى إطار الجو العام للحركة الروما نسية ، حيث تؤدى الاستعدادات النفسية المتماثلة إلى نتائج متماثلة ، أمَّا فى طبيعة الخيال فإن تلك المؤثرات تأتى كالومضات العابرة . وهناك نموذجان لذلك ، فالشابى يقول من قصيدته « قالت الأيام » :

يــأيها الســادرُ فــى غَــيِّــهِ   يــاوَاقِــفاً فــوق حُطام الجِـبَاه
مهــلاً . . ففى أنَّات مَن دُسْتهُم   صــوتٌ رهيبٌ سوف يدوى صَداه

فقد يَربط القارىء بين فكرة الشابى فى البيتين ، وفكرة أبى العلاء المعرى التى عبر عنها بقوله :

خــفِّف الــوَطْءَ ما أظــن أديم الــ
أرض إلاَّ مِـنْ هَـذِهِ الأَجْسَـــاد

ولكنه ـ أى القارىء ـ مايلبث أن يدرك أن هذه رابطة عابرة ، فالشابى يتحدث عن الجبار الذى يدوس جباه المستضعفين ، ويُومىء إلى أن الحق أشد جبروتاً ، وأنه إن أغفى مرة فإن فى عينيه يقظة تستشرف الفجر ، الذى لايستطيع أن يبصره ذلك الجبار السادر فى غيه .

وثمة نموذج آخر مستوحى من قصيدة « يا رفيقى » للشاعر ميخائيل نعيمة ، من ديوانه (همس الجفون) ، والتى جاء فيها :

قل : وَلَجْنَا قَصرَ الحياةِ عُراةً   واقتربنا من الحياة سُكارَى
فاستطبنا لُهَاثَها ولَمَاها   وعَشِقْنَا ظَلامَها والنهارا
ورضعنا من ثديها ما اشتهينا   ونزعنا عن منكبيها الإزارا
وغرفنا من حفْنَتَيْهَا كنوزًا   وقَطَفْنَا من وَجْنَتَيْهَا ثمارا
غير أَنَّا لما دُعينا انطلقنا   وتركنا ـ كما وُجدنا ـ الديارا

وخرجنا منها عُراةً حَيارَى

قل : أَطَعْنَا فى كل ماقد فَعَلْنَا   صوتَ راعٍ إلى الوجود دَعَانَا
فجنينا من الحياة ولكنْ   قد أعدْنَا إلى الحياة جنانا
وأَكَلْنَا منها ولكنْ أكلنا   وشربنا لُحومَنَا ودِمَانا
ومَضَيْنَا ولا ندامة فينا   وتَرَكْنَا كُئُوسَنَا لِسوانا
فإذا كان فى الحياةِ حرامٌ   فحرامٌ من مِثْلِنَا أَنْ يُهانا

وحرام من مثلنا أن يُدَانا

فلو قلنا إن الشابى قرأ هذه القصيدة ، ودارت نغمتها فى نفسه ، وملكت إعجابه لابنغمتها فحسب ، بل ـ أيضاً ـ بالروح الفلسفية التى

تشير إلى الارتواء والعطاء معًا ، فإنه نقل هذا إلى معنى الاكتفاء بكأس الحب ، لابكأس الحياة فى قصيدته « ألحان السكرى » حيث يقول :

قد سَكِرْنَا بحبنا واكتفينا   طفح الكأس ، فاذهبوا ياسقاة
نحن نحيا فلا نريد مزيدًا   حسبُنا ما مَنَحْتِنَا ياحياة

وكانت ظلال هذه القصيدة تخيم على نفسه من قبل ، حين نظم قصيدته « فى ظل وادى الموت » حيث يقول :

قد رقصنا مع الحياة طويلا   وشَدَوْنَا مع الشباب سنيناَ
وعَدَوْنَا مع الليالى حُفاة   فى شِعَابِ الحياة حتَى دَمِينا
وأكلنا التراب حتى مللنا   ونثرنَا الدموع حتى روينا
ونثرنا الأحلام والحب والآ   لام واليأس والأسى ، حيث شِينَا

فانظر معى كيف كان اللقاء مع الشاعر ميخائيل نعيمة مرتين ، وفى كلتيهما لم يتخلَّ خيال الشابى عن اتساقه مع إحساسه النفسى ، ويكون لقاؤه بنعيمة أمرًا عابرًا .

* * *

لقد كانت الحياة عند الشابى لغاية أسمى من عرَض زائل ، كالمجد والجاه ، وأوهام الحياة ، وهذه الغاية هى الحب بمعناه الجميل الذى يتسع ليشمل كل شىء ، من خلال استواء نفسى يتعلق بالفجر والطير والعطر والزهر ، وكلها مفردات الجمال الذى يبعث فى النفس المسرة ، ويزيح الحزن، وينشر أضواء الحياة . يقول الشابى :

لستُ يـاأمسيَ أبكيـك لمـالٍ أو لِجَـاهْ
فـأنـا أحتـقر المـجـدَ وأَوْهَـامَ الحـياه
أو لعُـمـر بلغـتْ منـه الليـالى مُنْتَهاه
وتلاشـت فى خـضمٍّ الزمـن الطاغى قُواه
فأنـا مـازلت فى فـجر شبـابـى أَوْ ضُحَـاه

لقد رغب الشابى عن المجد فى هذه الأبيات ، وربما لامه البعض على احتقاره المجد ، غير أنه برر ذلك ـ فيما بعد ـ بأنه لايزال فى فجر شبابه الذى يمكنه من تحقيق المجد فى قابل الأيام . أما السؤال الذى يثيره الشابى ، ويحتاج إلى جواب فهو سبب بكائه . فما الذى يؤلمه ، وهو ناعم بكل ماشاء؟ الجواب فى شعره الذى يقول فيه :

إنـما أبكـيك للحـب الـذى كان بهـاه
يمـلأ الـدنيا فأنَّى (١)سـرتُ فى الدنـيا أراه
فـإذا مـالاح فجر ، كـان فى الفـجر سناه
وإذا غرَّد طـيرٌ ، كـان فى الشَّدْوِ صَـدَاه
وإذا ماضـاع عِطْرٌ ، كان فى العِطْر شَـذَاه
وإذا مـارفَّ زَهْرٌ ، كـان فى الزهـر صِبَـاه
فهـو فى الكـون جمـال يمـلك الأُفْقَ ضِيَاه
عبـقرى السحـر ، مِرَاحٌ وديـع فى سمـاه
ينسج الأحـلام فى قلـبى بـأضـواء الحياه
ويغنينى فَأَنْسَى فى مَسَرَّاتِ غِنَـاه
كـلَّ مـافى الكـون مـن حـزن وأفـراح عداه

---

(١) أنَّى : أينما .

وقد يطلع علينا الشابى فى صورة فيلسوف صاحب نظرة متأملة فى الحياة والكون ، متقلبة بين اللذة والألم ، فيهتف من أعماق نفسه ، مستصرخاً الجراح الدامية ، هاتفاً بها أنْ كُفِّى عن نواحِكِ وأنينك . . ولكن . . أنَّى لها أن تصيخ إلى هذه الصرخات التى لاتلبث أن تتلاشى فى خضم الحياة ، فهو يقول :

اسكُتِى ياجرَاح   واسكنى ياشُجون
مات عَهْدُ النواح   وزمان الجنون
وأطَلَّ الصباح   من وراء القرون

وإننا لنعلم الداء الذى كان يعانيه ، ولم يكن الشابى ليضعف أمام شراسة المرض ، لأن قلبه المتعب بالمرض خافق بمعانى الحب ، هاتف للجمال ، يتغنى للشباب السعيد ، والآمال الباسمة ، والربيع الدائم الذى تزينه يد صَنَاع ماهرة ، فتتجلى قدسية الخيال فى عينى الشاعر فيقول :ـ

فى فؤادى الرَّحيبْ   معبدٌ للجمال
شيدتْه الحياه   بالرؤى والخيال
فتلوتُ الصلاه   فى خشوع الظلال
وحرقتُ البخور   وأضأت الشموع

لكأنى بالشاعر أبى القاسم يحس بقرب منيته ، ويتهيأ ركبه لوادى الردى ، لأن سفينة العمر على وشك الإقلاع ، حيث تنعم خالدة فى ملكوت صَوَّره لها خيالها الشعرى المجنح يقول :

من وراء الظلام   وهدير المياهْ
قد دعانى الصباحْ   وربيع الحياهْ

يالـه من دعاءْ هزَّ قلبى صداهْ !!
لم يَعُد لى بقاءْ فوق هذى البقاعْ

إنه يعلن على الملأ أن حَيْنَه قد حان ، وأن أُفول النجم قد آن ، ولهذا فإنه يقول فى النهاية :

الوداعَ . . الوداعْ ياجبال الهمومْ
ياضبابَ الأسى يافِجاج الجحيمْ
قد جرى زَوْرَقى فى الخضمِّ العظيمْ
ونشرت القلاعْ فالوداعَ !! الوداع !!

الشابى فى مرآة الشعر :

تناول شعر الشابى كثيرًا من الموضوعات التى تتسم فى معظمها بالجدة التى انفرد بها ـ آن ذاك ـ وسط من يكتبون الشعر فى المغرب العربى . ولقد تنوعت هذه الموضوعات بين الحب والغزل ، ومنها قصائده التى اختارها فى ديوانه : « الحب ، ذكرى ، صفحة من كتاب الدموع ، ذكرى صباح ... » وتناولت قصائده كذلك : « القلب » فى قصيدتيه : « إلى قلب تائه ، أكثرت ياقلبى » . ثم قصائد العدم والموت ، وهى : « حديث المقبرة ، إلى الله ، إلى الموت ، شكوى ضائعة » . وقصائده عن الغاب مثل : « الطفولة ، المساء الحزين ، بقايا الخريف ، قيود الأحلام ، رثاء فجر ، الغاب » . كما تناولت أشعاره الغربة الروحية فى قصائده : « الكآبة المجهولة ، مناجاة عصفور ، أغنيةا لشاعر ، إلى عازف أعمى ، صوت التائه » . وتناولت أشعاره أيضاً الوطنيات مثل قصيدتيه : « خَلِّه للموت ، قالت لى الأيام » .

وكذلك الهجاء الاجتماعى فى قصيدته : « الدنيا الميتة » . أمَّا الشعر السياسى ففى قصيدته : « الثعبان المقدس » . وعن الحِكَم كانت قصائده : « حرم الأمومة ، متاعب العظمة ، شجون ، سر مع الدهر » . وكل ماذكرنا آنفاً بعض من عناوين القصائد التى تناولها ديوانه « أغانى الحياة » .

لعل التغنى بالطبيعة من ألمع المرايا التى يمكن على سطحها إظهار اتجاه الشابى نحو الغاب ، مفرغاً رؤيته الفكرية والفنية ـ على طريقة الروما نسيين ـ فالجداول الشادية الحالمة ، والدوح يحنو بظله وأنغامه وأنسامه ، والإصغاء لنوح الرياح ، وترنم الشَّبِيبَةُ بألحان الغرام . وهناك يلتقى الطير المغرد فى الفضاء مع أناشيد الرعاة . . إن الشابى يقول من قصيدته « الغاب » :

لِلَّه يوم مَضَيْتُ أَوَّلَ مَرَّةٍ   للغَابِ أرْزَحُ تحت عِبْءِ سَقَامِى
وَدَخَلْتُهُ وَحْدِى وحولى موكبٌ   هَزِجٌ مِنَ الأحْلاَمِ والأَوْهَامِ
ومشيتُ تحت ظِلالِه مُتَهَيِّباً   كالطفل فى صَمْتٍ وفى استسلام
أرْنُو إلى الأَدْوَاحِ فى جَبَرُو تها   فأخالها عُمُدَ السماء أمامى
قد مسَّها سحر الحياة فأورقت   وتمايلتْ فى جَنَّة الأحلام

والنص ـ فى غالبه ـ على هذا النسق العالى ، لم يترك فيه شاعرنا العبقرى معنى من معانى الجمال فى الطبيعة إلاَّ فطن إليه ، مما يدل على أنه كان يحن إلى حياة الغاب ؛ حيث المثل الأعلى للحياة ، الذى لم يكن يبغى بالعيش فيه بديلا .

ويخاطب نفسه فى القصيدة نفسها ، جاعلا من الغاب معبدًا ، وهو (كاهن الأحزان والآلام) إنها تسمية لافتة . . يقول الشابى :

المعبد الحى المقدس هاهنا   ياكاهنَ الأحزان والآلام
فاخلع مُسوح الحزن تحت ظلاله   والبسْ رِداء الشعر والأحلام
وارفع صلاتك للجمال عميقة   مشبوبة بحرارة الإلهام
واصدح بألحان الحياة جميلة   كجمال هذا العالم البسَّام
واخفق مع العطر المرفرف فى الفضا   وارقص مع الأضواء والأنسام

إن المعين الذى يستقى منه الرومانسيون واحدٌ ، فهم يحتفلون بالخريف أكثر من احتفالهم بأى فصل من فصول السنة ، إذ يروقهم منه الجليد والضباب وتجرد الغصون من أوراقها ، وعصف الرياح بالأوراق الجافة ، وتعطل الحياة فى هياكل الأشجار ـ وفى كل ذلك معنى الذبول والفناء ، ترجمة لروح الحزن السائدة لدى الرومانسيين .

ولدى ذِكْر الخريف نذكر قصيدة « لامارتين » الشهيرة التى يبدؤها :

سلاماً أيتها الغابات المتوجة ببقايا الخضرة . .
والأوراق المصفرة المنثورة . .
على العشب . .
سلاماً أخريات الأيام الجميلة

إن حداد الطبيعة وتجاوب الألم يروقان فى ناظرى . . ومع ذكر الخريف أيضاً نذكر قصيدة ميخائيل نُعَيمة أوراق الخريف ، والتى يقول منها :

تناثرى . . تناثرى   ياباهجةَ النظر
يامرقص الشمس ويا   أرجوحة القمر

فماذا يقول لنا الشابى فى قصيدته « بقاء الخريف »؟

بدأها بإعلان سأمه من رؤية القصور وسكانها ، وماحولها من صراع عنيف ، يكيد فيه القوى للضعيف ، ويحطم الغنى قلب الفقير ، وتُسفح دموع اليتامى . . هنا تجيش مشاعر شاعرنا ، وتمتلىء عيناه بالدمع ، ويذهب بأحزانه إلى الغاب ، ففيه كل ماتهوى نفسه المحزونة . هناك فضاء شاعر حالم يناجى السهول ، وينظر حواليه فيرى غديرًا هامدًا ، وقد ذبل ماحوله من الزهور ، فجاء عليها الخريف بكفن من الصقيع . ولم يبق حول الغدير من حياة سوى زهرة واحدة شقيت بالحياة هنالك . فما الذى يجعلها تقيم بهذا المكان المخيف ، يروعها قصف الرعود ، ويحزنها زفيف الريح . . يغَشِّيها السديم فى الصباح ، وتطوف عليها الأحلام المخيفة فى الليل . إن غاديات الغمام ترهبها ، والرياح العاصفة تؤلمها . تنظر حواليها فترى رفيقاتها صرعى الجفاف . . يالها من مسكينة !! إنها تبكى بكاء الغريب ، وتشكو أساها بياض النهار ، ومن أين لها الرفيق ، والدنيا حولها صخور قاسية ، وصدى هتوف ؟! . وأخيرًا جادت بروحها المعذب ، وغادرتها الحياة . ولدَى مصرع الزهرة يقول الشابى :

فبانــــت حيالَ الغدير الأصمّ وقـد أخـرس المـوت ذاك الحفيف
وقــد خـضَّبــتـهـــا غيومُ السَّماء كـغـانــيــة ضرَّجتـــها السُّيــوف

ولايلبث الشاعر أن يتخذ من مصرع هاته الزهرة شبها لحظِّةِ ورمزًا لحياته فيقول :

ذكــرتُ بـمضـجعهـا المطـمئن ومـرقــدهـــا فى السَّفِيـر الجَفِيـف
مـصَــارعَ آمــالــىَ الغـابــرات وخـيْبَـــتَها فى الـصِّراع العَنـِيف

ما أشبه هذا الحظّ الذى تقطعت فيه كل خيوط الأمل ، بما ختم به ميخائيل نعيمة قصيدته الشهيرة « النهر المتجمد » بقوله :

يانَهْـــرُ ذا قـــلبى أراه كـمــا أراك مُكَـــبَّلا
والـفــرق أنك ســوف تنشـط من عقالك وهْوَ لا

كما أن بعض أبيات القصيدة يذكرنا بقصيدة « موت الفراش » للشاعر إيليا أبى ماضى ، وكذلك قصيدة « فى القفر » ، وهى التى تبدأ هكذا :

سئـمــتْ نفـسىَ الحـياة ومـلَّـت حتـــى مـن الأحباب
وتمشت فيها الملالة حتـى ضجِرت من طعامهم والشراب
ومن القُبح فى نقـاب جميل ومن الحُسن تحت ألــف نقــاب
قــالت : اخـرج من المـدينة للقفر ، ففيه النجاة من أوصابى
ولْيَكُ الليلُ راهبى ، وشُموعى الشُّهبُ ، والأرض كلُّها محرابى

إن هذا التواصل والتراسل الفكرى دليل على أن شعراء الاتجاه الرومانسى ـ والشابى منهم ـ كانوا يصدرون عن وحي واحد ، وينهلون من معين واحد .

* * *

كانت الغربة الروحية من الموضوعات التى تناولها شعر الشابى كثيرًا ، والغربة الروحية إحدى القضايا الشهيرة فى الأدب الرومانسى شرقاً وغرباً ، فالشاعر يرى أنه غريب فى عصره ، يرى ذلك بإحساسه وشعوره ومثله الأخلاقية والجمالية ، ولهذا فإنه حزين لايجد سلواه التى يبحث عنها .

عبر الشابى عن ذلك فى قصيدته « الكآبة المجهولة » تعبيرًا مليئاً بالمرارة ،

يقول فى مطلع القصيدة :

كـآبتـى خـالفـت نـظائرَها غـريبةٌ فى عـوالـم الحـزن
كـآبتـى فـكـرةٌ مـغـرِّدة مجهـولة ، مـن مسـامـع الزمن

ويقول فى نبرة صادقة عميقة :

كـآبتـى شـعـلـةٌ مؤجَّجـة تحـت رمـاد السكـون تستـعِرُ
سيـعـلـم الـكونُ مـاحـقيقتها ويـطـلـع الفـجـر يـومَ تنفجرُ

أى أنه حين يموت ، تنفجر كآبته وتتلاشى ، ويطلع الفجر بطلوع روحها إلى منبعها الأول .

ولقد تناول هذه الفكرة - ضمن من تناولوها - جبران خليل جبران فى كتابه « العواصف » . ومن كلامه فى هذا المعنى :

« أنا غريب فى هذا العالم . إننى غريب ، وفى الغربة وحدة قاسية ، ووحشة موجعة ، غير أنها تجعلنى أفكر أبدًا فى وطن سحرى لا أعرفه ، ويملأ أحلامى بأشباح أرض قصية مارأتها عينى » . إلى أن يقول فى خاتمة كلامه : « أنا غريب ، وسأبقى غريباً حتى تخطفنى المنايا ، وتحملنى إلى وطنى » .

وأصل هذه القضية يرجع - فيما أرجح - إلى فكرة فلسفية قديمة ، فقد كان أفلاطون يرى أن النفس روح كانت عند الخالق ، فأثِمت ، فأُهبطت من السماء ، ودخلت جسم الإنسان ، ولهذا فإنها دائماً تحن إلى موطنها السماوى الأول . كما أن أفلاطون تضور النفس فرساً مجنحة ، غذاؤها الجمال والحكمة والصلاح ، فلما هبطت فقدت جناحيها ، ودخلت جسم الإنسان. وقد جرى فكر ابن سينا مجرى الفيلسوف الإغريقى فى هذا

الاعتقاد، إلا أنه جعل النفس وَرْقَاء ذات تعزز وتمنع . . هبطت من محلها الأرفع على كُرْهٍ منها ، ولكنها حين أَلِفَتْ سجن الجسد ، أو « الخراب البَلْقَع » ـ كما يسميه ـ نسيت عهودها الأولى ، ومنازلها العلوية، التى لاتزال آسِفَة لفراقها . .

وهذا كلام الشيخ الرئيس ابن سينا بنصه :

هَبَطَتْ إليكَ مِنَ المحَلِّ الأرْفَعِ   وَرْقَاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتَمنُّعِ
وصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إليكَ ـ ورُبما   كَرِهَتْ فراقَكَ ، وهى ذات تَفَجُّعِ
أَلِفَتْ ـ وما سَكَنَتْ ـ فلما واصَلَتْ   أَلِفَتْ مُجَاوِرَةَ الخراب البَلْقَعِ
وأظنها نسيتْ عُهودًا بالحِمَى   ومنازلاً بفراقها لم تَقْنَعِ

وقد راقت هذه الفكرة شاعرنا الشابى ، حيث وجدها تتفق مع شعوره بالغربة ، ونفوره من قيود المجتمع ، ورياء المدينة ، وقسوة الناس وظلمهم، فزعم أنه خُلق ليحيا فى عالم من النور والضياء ، ليسبح مع كواكب السماء، ولكن القدر أنزله إلى الأرض ، ورماه فى الدنيا وحيدًا أعزل ، ثم قضى عليه بالإقامة بها كرهاً . . يقول الشابى فى قصيدة « إلى الله » !

أنتَ أَنْزَلْتَنِي إلى ظُلْمَةِ الأرض ، وقد كنتُ فى صَباحٍ زَاه
كالشعاع الجميل ، أَسْبَحُ فى الأُفق ، وأصغى إلى خرير المياه
أنْتَ أنْشأْتَنى غريباً بنفسى بين قَوْمِى فى نَشْوَتى وَانْتِبَاهِى

ويقول من قصيدة أخرى بعنوان « صوت تائه » :

شُرِّدْتُ عن وطنى السماوىِّ الذى   ما كان يوماً واجِمًا مغموما
شُرِّدْتُ عن وطنى الجميل أنا   الشقىُّ ، فعشت مُشطورَ الفؤاد يتيما

فى غُرْبَةٍ روحيَّـــةٍ مـلـــعـونـــةٍ   أشـواقهـا تـقـضى عِطَاشاً هِيمَـا

وعلى ضوء هذا الاعتقاد قال فى « نشيد الجبار » :

أَمَّا إذا خمدت حياتى وانقضَى   عُـمـرى ، وأخْرَسَتِ المنيةُ نَائى (١)
وخَبَا لهيبُ الكون فى قلبى الذى   قــد عـــاش مثل الشعلة الحمراء
فأنا السعيدُ بأننى مُتَحَوِّلٌ   مــن عـالــم الآثـــام والبَغْضـــاء
لأَذُوبَ فى فجر الجمال السَّرْمَدِىِّ   وأرتـــوى مـــن مَـــنْـهَلِ الأَضْـــوَاء

إنه يرى أنه بعد الموت سوف يرجع إلى عنصره الأول « النور » ، كما أنه يرى أننا جميعاً مشردون عن وطننا السماوى ، مُرَوَّعُون فى حال الإقامة ، مُرَوَّعُون فى حال الرحيل ، كلنا يدعو الحياة فلا يجيبه إلاَّ الردى ، فإذا جاء الردى ، ولفه فى طياته ، استمرت الحياة فى سيرها ، كأن فقيدها لم يكن إلفاً لها .

فى صداقة حميمة يقول :

شُرِّدت للدنيا ، وكلٌّ تائه   فيـــهــا يــروَّع تـــائهـــاً ومُقِـــيمَا
يدعو الحياة فلا يجيبُ سِوَى الرَّدَى   لـيـــدسَّـــه تحت التـــراب رَمِيمَـــا
وتظلُّ سائرةً ، كأن فقيدها   ماكان يوماً صـــاحبـــاً ، وحميمَـــا

ولايكتسى شعور الشابى بالغربة ـ دائما ـ بل بالحنين إلى المصدر الأزلى ، فربما ظهر فى مظهر دنيوى ، يتمثل فى ضجر الشاعر من معاشرة الناس ، ومن دنياهم السيئة . . يقول من قصيدته « مناجاة عصفور » :

---

(١) يقصد نايه الذى يعزف عليه .

غرِّدْ ، ففى قلبى إليك مودَّة   لكن . . مودةُ طائر مأسور
غَرِّدْ ، ولا ترهب يمينى إننى   مثل الطيور بمهجتى وضميرى
أنا طائرٌ ، متفردٌ ، مترنم   لكن . . بصوت كآبتى وزفيرى

على أن ثمة قصيدة للشابى تحوى مجموعة من عبارات الأسى ، إنها قصيدة « أغنية الشاعر » التى يقول فى مطلعها :

يارَبَّةَ الشِّعْرِ والأحلام غَنِّينى   فقد سَئِمْتُ وُجومَ الكَوْنِ من حين
يااربة الشعر غَنِّينِي فقد ضَجِرَتْ   نَفْسِى من الناس ، أبناءِ الشياطين

إنه هنا يركز تجربته الإبداعية فى استخدام قاموس الأسى ، لينقل لنا حالته النفسية : « أناخَتْ بنفسى المآسى . . هدَّ من خلدى النوح . . أنا أبكى لشقوة الحياة . . لذتُ بالظلماء منتحبًا . . إنى بائس تعس . . قلبى قبر مظلم . . بلوى الحياة . . أحزان المساكين . . بيت الأحزان » لقد كان الشابى ذا قدرة فائقة فى تركيب الصور الشعرية ، بما يثير الإعجاب بقدرته على تنسيق الكلمات واستحضار مدلولاتها من خلال نسق تركيبى متفرد .

وفى قصائد أخرى نراه يعمد إلى القصد فى اللفظ ، وتركيز اهتمامه بما يشكل الجو الإيحائى الملائم ، ليبعث أصداء بعيدة فى نفس قارئه ، تقرب منه الفكرة والتعبير معاً ، فى بساطة واعتدال ، وقدرة على استخدام مؤثرات أخرى مثل تناسب الوزن الذى يستخدمه مع الجو الذى يريد تصويره بعاطفته الجياشة ، والجو الجميل المؤثر . وأحسن مَثَلٍ لذلك قصيدته « إلى عازف أعمى » ، والتى يقول منها :

أدْرَكْتَ فَجْرَ الحَياةِ أَعْمَى   وكُنْتَ لاتعرفُ الظَّلامْ

وفى ذلك إشارة إلى فكرته فى مجىء الإنسان إلى الدنيا من عالم النور

فـأطْـبَقَــتْ حَــوْلَـكَ الدَّيَاجِى   وغــامَ مــن فــوقــك الغَمَامْ

وإننا لنلمح فى هذا النص توجهات أبى العلاء المعرى ، فإننا حين نقرأ قول الشابى : « وكلنا فى الحياة أعمى » نتذكر قول أبى العلاء « ويصير الأقوام مثلى أعمى » .

* * *

ويأتى الحديث عن القلب ليمثل وترًا من الأوتار التى عزفت عليها قريحة الشابى ، وإن كنا نلمح أنه خص القلب بقصائد كاملة ، مثل قصيدتَىْ «الأبد الصغير» و« قلب شاعر » ، وقد يتناول القلب بمقطوعات فى ثنايا بعض القصائد ، مثل قصائده : « ياشعر » ، و « أغانى التائه » ، و « الجنة الضائعة » . وفى أشعاره الأخيرة كتب قصيدتين تحدث فيهما عن القلب ، وهما : « إلى قلبى التائه » و « أكثرت ياقلبى » . وقد لفتت هذه الظاهرة كثيرًا ممن تناولوا شعر الشابى ، وخصوصاً أنه تحدث عن القلب حديثاً جذاباً مؤثرًا ، من خلال صور وتعبيرات مبتكرة ، لم يتناولها أحد قبله .

لقد كان قلبه الوصلة التى يتصل عبرها بالعالم الخارجى ، فكان يحيا من خلال ذلك حياة مضاعفة ، ويحس فى اللحظة الواحدة مالا تحسه قلوب فى فترات طويلة . ففى قصيدته « إلى قلبى التائه » يتحدث عن قلب محطم صامت واجم ، أسْود الآفاق حالكُها ، ورُودُه صفراء بين الأشواك ، وطيوره صامتة لا تمارس الشدو ، ومزماره أبكم : لا يترنم . إنه قلب أثخنته الزفرات ، وعش نفرت منه طيور الفرح ، فحملته الرياح العاتية إلى النهر الجارى ، فإذا العش فوق التيار أوراق منفصلة ، وأعواد بالية . . إنه حقل مجدب لايلتفت إليه الرعاة ، بل إنه ليل معتم لايناسب إلا الباكيات

المنتحبات . إنه قبر دفن فيه رفات أيامه الأولى ، أو لحن يخبط فى التيه ، ويسير مع الظلمة فى الصحراء كناقة تائهة . إن البحر موار بأمواج الحياة ، والقارب مشدود إلى الصخور ، والشاطىء قريب . . لكن القارب لاينطلق فى بحر الحياة لأن ربانه مات منذ زمن بعيد .

إن هذه القصيدة إحدى مراثى حبه الأول الدفين ، حب مبنى على التأملات السامية ، والذهول الصوفى . يقول الشابى :

مـــالأ نْــغَــامِكَ لاتــنـطقُ إلاَّ بـاَكـيَــات
ولــقـد كـانت صباحَ الأَمْسِ بين النسمات
كـعَـذارَى الغـابِ ، لاتعرف غير البسمات

إن أصداء هذا الحب تبقى ماثلة فى قلبه الدامى :

أَنْــتَ عُـودٌ مَـزَّقَـتْ أَوْتَــارَهُ كَــفُّ الحَيـــاة
صَـــامِـتٌ كـالقــبر إلاَّ مِنْ أَنِينِ الذكريات

إلى أن يقول :

أَنْـــتَ قَـبــْرٌ فيـــه مـن أيامِيَ الأُولى رُفات

أما قصيدته « أكثرت ياقلبى » فإنها حوار بين الشاعر وقلبه ، فقد أراد لقلبه أن يقلع عن هذا الحزن الدائم ، ويكف عن ارتداء أثواب الكآبة المرهقة . إنه يصف قلبه متهماً إياه بالغلو والمبالغة . انظر معى :

أَمَــا تَــرَى البُـلْبُــلَ فــى غـــابِـهِ يَشْـدُو وفوق الغابِ تخطو النجوم؟
أَمَــا ترى الأَسْحَارَ تبدو بها الغاباتُ كَالأَحْـلامِ خَــلْــفَ السَّـدِيم (١) ؟

---

(١) السديم : الضباب .

أمَا تَرَى الآمال فى سِحْرِها   أما تَرى الليل يُناغِى النُجوم؟

ويستمر الشاعر مخاطباً قلبه ، معاتباً فى دوام الأسى والوجوم ، ولكن قلبه لايجيب بشىء ، ويظل الحوار من جانب واحد، يقول :

وذَاكَ نَاىٌ صامتٌ وَاجِمٌ   يُصْغِى إلى صَوْتِ الغَرامِ القديم

ويقول :

ياقَلْبِىَ الباكى إلاَمَ البُكَا ؟   مافى فضاء الكون شىء يدوم
فَانْثُرْ غُبَارَ الحُزْن فوق الدُّجى   واسمعْ إلى صوتِ الشباب الرخيم

إن قصة حبه لم يفصح عنها إلا عبر قصائده ، التى يمكن أن نستنتج منها بعض فصول هذ الحب ، الذى انداح بين عهدين : عهد السعادة بالحب ، وعهد الشقاء بذهابه . إن حبيبته قد ماتت فى صباه الباكر ، فأصابت منه الفؤاد ، وأخذ يرثيها بهاتيك المراثى المريرة ، التى تزيد على القصائد العشر ، وهذا نموذج من حبه المتفجع فى قصيدته « مأتم الحب » يقول :

مات من تهوى ، وهذا اللحدُ قد ضَمَّ الحبيب
فَابْكِ ياقلبى بما فِيكَ من الحُزن المُذِيب
ابْكِ ياقلب وحيد !

ويقول فى قصيدة « الدموع » :

ضَاعَ أَمْسِى ، وأين مِنِّىَ أَمْسِى ؟   وَقَضَى الدهْرُ أن أعيشَ بيأْسِى
وقضى الحبُّ فى سكون مريع   ساعةَ الموتِ بين سخطٍ وبؤسِ
لم تُخَلِّفْ لِىَ الحياةُ من الأمس   سِوَى لوعةٍ تهبُّ وترسِى

إنه يتذكر قائلا :

كنا كَزوْجَى طائرٍ في دَوْحَةِ الحب الأمينْ
نتلو أناشيدَ المنى بين الخمائِلِ والغُصونْ

مَلأَ الهَوَى كأس الحياةِ لنا وشعشعها الفتونْ
حتى إذا كدنا نرشَّف خمرها ، غضب المنون
فتخطَّف الكأسَ الخلُوب ، وحطم الجامَ الثمين
وأراقَ خمرَ الحب فى وادى الكآبة والأنين
وشدا بلحن الموت فى الأفق الحزين المستكين

أما قصائده السعيدة بالحب المشبوب فى قلب يتفتح للحياة ، فمنها قصيدته « ذكرى صباح » التى يقول منها :

قَدَّسَ اللّهُ ذِكْرَهُ مِنْ صباحٍ ساحرٍ فى ظلال غاب جميل
كان فيه النسيم يرقص سكرانَ على الورد ، والنبات البليل
وضبابُ الجبال ينساب فى رفق بديع على مُروج السهول
وأغانى الرعاة تخفق فى الأغوار والسهل والربى والتلول
ورحاب الفضاء تَعبقُ بالألحان ، والعطر ، والصفاء الجميل
والملاك الجميل مابين ريحان ، وعشب ، وسنديان ظليل
يتغنى مع العصافير فى الغاب ، ويرنو إلى الضباب الكسول
وشعور الملاك ترقص بالأزْهار والضوء والنسيم العليل

ويخاطب ملاكه الجميل فى قصيدته « تحت الغصون » فيقول :

هاهنا . . فى خمائل الغاب تحت الزان والسنديان والزيتون

أنت أشهى من الحياة وأبهى من جمال الطبيعة الميمون
ماأرقَّ الشباب فى جسمك الغض ، وفى جيدك البديع الثمين

ثم إنه يغرد بشعره ، وهو يمشى فى روضة الشباب طروباً فيقول :

أُتْلُ للحب والحياة أغانيك ـ وخل الشقاء تَدمَى كُلومه
واحتضنِّى فإننى لَكَ حتى يتوارَى هذا الدُّجَى ونجومه
وَانْسَ فِىَّ الحياةَ فالعُمر قفر مُرْعِبٌ إِنْ ذَوَى ، وجَفَّ نعيمه

ويقول لحبيبته فى قصيدة « أراك » :

أراكِ فتحلو لدى الحياة ويملأ نفسى صباح الأمل
وتنمو بصدرى ورودٌ عِذاب وتحنو على قلبى المشتعل
ويفتننى سحرُ تلك الشفاه ترفرف من حولهن القبل

ويقول فى قصيدة « ألحانى السكرى » :

نحن نلهو تحت الظلال كطفلين سعيدين فى غرور الطفوله
وعلى الصخرة الجميلة فى الوادى ، وبين المخاوف المجهوله
نحن نغدو بين المروج ونُمسى ونغنى مع النسيم المغنى
ونناجى روح الطبيعة فى الكون ، ونصغى لقلبها المتغنى

فهذا الحب فى عهديه يمثل مفتاحاً نفهم به جانباً من جوانب شخصية الشابى الحزينة ، كما نستطيع به أن نفسر مانراه فى شعره من إسراف فى ذكر اللوعة والأسى .

* * *

ومن الآفاق التى ارتادها الشابى فى دنيا الإبداع الشعرى ذلك اللون الاجتماعى ، الذى برع فيه الشابى إلى جانب براعته فى الشعر الغنائى الذاتى ، ومن هذ اللون الاجتماعى قصائده التى تحمل عناوين :

« خَلِّهِ للموت » و « الدنيا الميتة » و « قالت لى الأيام » .

أما قصيدته « خلِّه للموت » فهى ثلاثة أبيات لاغير ، ولست أدرى . . هل كانت فى أول أمرها قصيدة تناولها الشاعر بالحذف والتحوير فآلت إلى هذه الأبيات الثلاثة التى يقول فيها :

كُلُّ قلب حَمَلَ الخَسْف وما   مَلَّ من ذُلِّ الحياة الأَرْذَلِ
كُل شَعْبٍ قد طغت فيه الدِّما   دون أنْ يَثْأَرَ لِلْحَقِّ الجَلِى
خَلِّهِ للموت يَطْوِيه . . فما   حَظُّه غير الفَنَاء الأنكل

وقد فعل الشىء نفسه فى قصيدته « الحياة» التى كانت سبعة عشر بيتاً ، فأتت فى الديوان ثلاثة أبيات فقط ، ومع هذا فإن الصياغة لم تكن على المستوى الذى تميز به الشابى فى سائر أشعاره .

أما قصيدة « الدنيا الميتة » فقد توجه بها الشاعر إلى الشعب فى قسوة لانظير لها ، وفى صرامة واضحة ، حتى إنها إذا اجتمعت مع قصائده المعروفة : « النبى المجهول » ، و « إلى الشعب » ، و«أبناء الشيطان » ، لكونت فى مجموعها منظومة رائعة ، أو بركاناً يغلى سخطاً وغضباً ونقمة ، ويقذف حمماً ملتهبة ، وشواظاً محرقاً . يقول فى هذه القصيدة إنه يفتح عينيه حين يفتحهما فلا يرى إلا جموعاً كثيرة تحيا بلا ألباب ، إنها لُعَبٌ تحركها المطامع ، وتدفعها الأحقاد والآمال الحقيرة . إنهم موتى يتحركون كما تتحرك الأصنام ، ويعيشون كما تعيش الأنعام ، لايعرفون شوق الحياة وعزمها ، يمر

الزمان من حولهم وهم كالصخور . . إنهم دائماً ينظرون إلى الأرض ولايرون نور السماء ، وإن مشاعرهم لتنمو فى التراب الهامد ، بل فى الحجر الأصم ، ثم تموت كما تموت الزهرة البائسة ، تنمو وتذبل فى ظلام الغاب . إن نفوسهم كالدخان ، بل إنها كالأشباح التى تتحرك من وراء الضباب ، خبا فيهم لهب الوجود فكأنهم بقية من أخشاب محترقة ، يقول الشابى :

إنِّى أَرَى ، فَــأَرَى جمـوعــاً جَمــَّةً   لـكنَّــها تـحـيــا بــلا ألبـــاب
يَـذْوِى حَـوَالَيْـهَــا الــزَّمَــانُ كـأنـما   يَــذْوِى حــوالـى جنـدل وتـِراب
لا قَـلْـبَ يـقتـحمُ الحياةَ ولا حِجَى   يَسْـمُــو سُـمُــوَّ الـطَّـائِرِ الجوَّابِ
بل فى الترابِ الميْتِ ، فى حَزْن الثرى   تـنـمو مشاعـرهـم مع الأعشـاب

ويفسر بعض النقاد هذه الحملة ، فيقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « دراسات فى الأدب العربى المعاصر » : « لايمكن تفسير هذه الثورة على الشعب إلا بأنه كان يستقبل شعره استقبالاً فاترًا ، فصبَّ جام سخطه عليه حين رآه لا يعترف بمواهبه ، ولا يستقبل أناشيده بالحرارة التى ينبغى أن تُستقبل بها . وربما كانت ثورة خاصة فعممها ، فهو يثور على خصومه من ذوى النفوس الدنيئة ، ويتسع بثورته إلى الشعب جميعه» .

ويقول الدكتور إحسان عباس فى كتابه « فن الشعر » : « وقد عرفنا أن حملته على الشعب ليست لنقص حقيقى فى الشعب نفسه ، بل لنقص اعتبارى ، لأن الشعب أَبَى أن يعترف بعبقريته الشعرية التى رمز لها الشاعر بالكأس والأزاهير » .

وأيًا كان شأن النقاد فيما قالوا ، فإننى أَرَى أَنَّ الشابى كان طاقة فكريَّة تريد تغيير مفردات الحياة الاجتماعية والأدبية ، ولكنه واجه معارضة شديدة

ممن تعلقوا بالماضى تارة ، ومن أترابه الذى أنكروا عليه قدرته الفائقة على الإبداع الفكرى والأدبى . يقول فى قصيدته « إلى الشعب » :

قد مَشَتْ حَوْلَكَ الفصولُ وغَنَّتْكَ فَلَمْ تبتهجْ ولم تَتَرَنَّمْ
وَدَوَتْ حولَكَ العواصفُ والأَنْوَاءُ حتى أَوْشَكْتَ أنْ تَتَحطَّمْ
وأطَافَتْ بك الوحوش ، ونَاشَتْكَ فلم تضطربْ ولم تتألَّمْ
ياإلٰهى !! أَمَا تحسُّ ؟! أَمَا تَشْدُو ؟! أما تَشْتَكى ؟! أما تَتَكَلَّمْ

لقد أراد الشابى أن يدفع بشعبه إلى وقدة الأشواق ، وحرارة النفس ، لعله يكسر قيوده ، ويخرج من ركوده وجموده . إنه يتساءل :

أين ياشعب قَلْبُكَ الخافِق الحسَّاسُ ، أيْنَ الطُّموحُ والأحلامُ ؟
أين ياشعبُ روحُكَ الشاعرُ الفَنَّانُ ، أين الخيال والإلهامُ ؟
أين ياشعب فَنُّكَ السَّاحرُ الخلاَّق ، أين الرسومُ والأنغام ؟

ومع هذا فإن فى نظرته بصيصاً من الأمل ، إنه يخاطب المتسببين فى هذا الركود الذهنى قائلا :

يـٰأيها السَّادر فى غيِّه ياواقفاً فوق حطام الجباه
مهلاً . . ففى أنات من دُستهم صوت رهيب ، ذا يدوى صداه
يـٰأيها الجبار لا تزدرِ فالحق جبار طويل الأَناه
يغفو وفى إغفائه يقظة ترنو إلى الفجر الذى لاتراه

بل إن أمله ونبوءته تحققت لا فى المغرب الغربى فحسب ، بل فى القارة الإفريقية ، يقول :

إن ذا عصرُ ظلمة غير أنى   من وراء الظلام شِمْتُ صباحه
ضَيَّعَ الدهر مجدَ شعبى ولكن   سترد الحياة يوماً وشاحه

بل إن الشاعر يتوجه « إلى طغاة العالم » قائلا :

حَذارِ فَتَحْتَ الرَّمَادِ اللَّهيبُ   ومن يَبْذُرِ الشَّوْكَ يَجْنِ الجراح

ويقول

سيجرفُكَ السَّيْلُ ، سَيْلُ الدماء   ويأكلك العاصف المَشتعل

ومن قصيدته « إلى الطاغية » :

لَكَ الوَيْلُ ياصَرْحَ المظالِمِ من غدٍ   إذا نهَضَ المُسْتَضْعَفُونَ وصَمَّمُوا
إذا حطَّمَ المستعبدون قيودَهم   وصَبُّوا حَمِيمَ السخط أيَّان تعلم
وفى صيحة الشَّعْبِ المُسَخَّرِ زَعْزَعٌ   تَخِرُّ لها شُمُّ العُروشِ وتُهْدَم

* * *

إن الفن الشعرى عند الشابى مرَّ بثلاثة أطوار ، أو ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى وتمثل المحاولات الباكرة ، وقد نشر له فيها شعر يتسم بالتقليد ، ولم يخل من الضعف ، وفيه نلمس تأثر الشاعر بشتى التيارات والأساليب ، بدءًا من صفى الدين الحِلِّى وحتى شعراء المهجر بما فيهم من قوة وضعف ، وقد أرجأ نشر هذه الأشعار حتى يعيد النظر فيها .

أما **المرحلة الثانية** فتمثلها مرحلة التطور فى تفكيره وفنه ، بعد مروره بتجربة حبه الأول ، والتى خرج منها شاعرًا ناضجاً ، ومفكرًا مُتفلسفاً ، لا يحب أن يصدر عنه إلا الشعر الصادق ، النابع من تجربة حقيقية ، فابتداء من عام ١٩٣٠ وحتى عام ١٩٣٣ كان التطور الحاسم فى شعر الشابى ، حيث كانت قصائد : النبى المجهول ، ورثاء والده ، وفكرة الفنان ، وفى ظل وادى الموت ، والساحرة ، وقال قلبى للإله ، وغيرها .

وتمتاز هذه المرحلة بظهور أثر الحياة العامة التى دخلها الشابى قبيل ذلك محاضرًا ومشاركاً فى النوادىُ وتأسيسِ الجمعيات الأدبية والإصلاحية ، فإلى جانب اهتمامه بمصير العالم ، وماوراء العالم ، نراه يهتم بشأن الشعب ، ومشكلات الحرية والثورة ، حيث تقوى الصور الشعرية ، وتتلاشى صعوبة العثور على الشفافية ، وتصفو اللغة ، وتزداد الموسيقى عذوبة وسحرًا .

أما **المرحلة الثالثة** فقد دخلها الشابى فى عام ١٩٣٤ ، حيث نشر شعره بمصر فى (مجلة أَبُولُّو) ، فَنُشِرت قصيدته « صلوات فى هيكل الحب » التى كان لها الأثر الكبير فى المشرق العربى ، مما جعل الشابى يتربع على أماكن الصدارة مع إبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، والهمشرى ، والشاعر السوادنى التيجانى يوسف بشير ، وغيرهم . وتوالت قصائده فى المجلات ، حتى نشرت له جريدة « العمل التونسى » قصيدته الخالدة «إرادة الحياة » .

لقد كان الشابى بمقاييس الفن الحقيقى شاعرًا مجيدًا ، وإذا لم تكن الحياة قد منحته من العمر مايمكنه من زيادة إنتاجه ، فقد كانت له قصائد خلدت اسمه فى سجل كبار المبدعين فى العالم العربى ، بل فى العالم كله . وسيبقى الشابى منارة مضيئة فى ديوان الأدب العربى ، مابقى أناس يتذوقون الشعر الصادق ، ويقدرون الفنَ الأصيل .

طرف من كتاباته النثرية :

كانت الحياة عند الشابى ـ كلها ـ شعرًا ، فكانت عباراته المعتادة أقرب إلى الشعر ، . كما كانت رسائله إلى أصدقائه . لقد طبعه الأدب ـ والشعر بخاصة ـ بطابع متميز ، تدرك ـ من خلاله ـ أن هذا هو الشابى . وهذا أحد أصدقائه يرسل إليه وقد انعزل الشابى عن الحياة الأدبية ، كتب يستفهم: « هل نضب الينبوع ؟ أم أنه قُضِىَ عليه بالنضوب ؟ » . فأجاب الشابى :

« أردت برسالتك أن تثير مافىَّ من هِمَّة راكدة ، وعزيمة خامدة ، ومهجة باردة خابية فى أتون الحياة ... كأنك تحسب ياصديقى أننى بانقطاعى عن التحدث إلى الناس بأنَّات قلبى وأوجاع روحى وأحلام نفسى وخطراتها قد فقدت قلبى الذى لن أعيش بسواه ، وفقدت نفسى التى بين جنبى ، وفقدت روحى التى تتمايل بين آصال الوجود وأسحاره ، كلا . . ثم ـ ياصديقى ـ كلا . . فإننى مازلت ذلك الرجل الذى يصغى لقلبه إذا تكلم ، ولروحه إذا ترنم ، ولنفسه إذا تأوَّهت فى سكون الظلام . . ومازلت ذلك الرجل الذى لايشغله ضجيج الحياة المادية عن التسمع لصوت الأدب الجميل ، والتغنى بموسيقى هذا الوجود » .

إن الظلام الذى عاش فيه الشابى يدفع إلى الزهد فى الأدب ، ويقود إلى إخماد كل صوت يخرجه الفؤاد . . ولكن الشابى كان كالطائر ، يهتف ويتغنى ، يفيض كل يوم بشىء رائع ، وتتدفق نفسه ـ مع الأيام ـ بالجديد الساحر ، لأن قلبه كان حياة بعيدة نائية ، رحبة الآفاق ، بعيدة القرار ، كان قلبه حياة قوية جبارة ، تغالب العواصف ، وتصارع الظلام ، ولا تنقطع عن الشدو ، أو تزهد فى الغناء .

* * *

كان يصطاف بمنطقة جميلة، باسقة النخيل ، زاهية الألوان فيما أبدعته الطبيعة ، فكتب إلى أحد أصدقائه واصفاً الأثر الذى تركه فى نفسه مصطافه الجميل . . كتب يقول : « إنى لازلت كالماضى ، أشعر فى صميم نفسى بأن الأقدار تحاربنى . وإنما الفرق بينى وبين نفسى الأولى أننى كنت أتقبل آلام الحياة ، وأتحسس أشواكها بنفس ضارعة ، وقلب دامع باك . أما الآن فإننى ألقاها ببسمة الساخر ، ونظرة الحالم المنتشى بجمال الوجود . وقد أحسست ببداية هذا التطور لما اصطفت فى « عين دراهم » . ولعل جمال الطبيعة هناك كان له الأثر الأكبر فى تلوين نفسى بهذا اللون الجديد . . أما الآن فإننى أشعر بانقلاب عميق قوى فى نفسى كل القوة . وستدرك هذا التطور فى نفسى حينما تطَّلع على قصائدى الجديدة ، وقد عبَّرت عن هذا الانقلاب الروحى بقصيد « الصباح الجديد » الذى أرسلته إلى « أبولُّو » ، وقصيد «نشيد الجبار » هو صورة صادقة لنفسى فى طورها الحاضر الجديد» .

واللاَّفت للانتباه أن الطبيعة فى« عين دراهم» ، وتأثره بلا مارتين كانا وراء هذا الانقلاب الهائل فى حياة الشابى الأدبية والشعرية . لقد قرأ كل ماكتب لا مارتين ، وبخاصة كتابه (رفائيل) الذى كان شاعرنا معجباً به أشد الإعجاب ، كان يعيد قراءته المرة بعد المرة . إنك لاتلمس فرقاً يذكر بين لامارتين فى (رفائيل) ، والشابى فى أبياته :

شَيَّدَتْهُ الحياه   بالرُّؤَى والخيال
فى فؤادى الرحيب   معبد للجمال
فتلَوْتُ الصلّاه   فى خشوع الظلال
وحرقتُ البخور   وأضأت الشموع

إن تشبيه الطبيعة بالمعبد تشبيه لا مارتينى . يقول لا مارتين فى رفائيل : «أنا لم أعد قط إنسانًا ، وإنما تسبيحة هائمة ، وتحية دائمة ، أبتهل وأُصلى ، وأذكر وأشكر ... وجسمى ينتقل من هاوية إلى لُجَّة ، غير ذاكر هيولاه ، ولا معتقد بالزمان والمكان والموت » .

إن الأديب الحق - شاعرًا كان أو ناثرًا - يكتب من أعماقه ، كما كان يقول جبران خليل جبران : « ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب » .

* * *

كتب الشابى إلى أحد أصدقائه يقول : « إن تونس لفى حاجة إلى أبنائها الذين تتدفق فى دمائهم عزمات الفتوة ، ونخوة الشباب ، ونشوة الأحلام . إن تونس لفى حاجة إلى أن تتقدم بخطوات ثابتة إلى سبيل النور والزهور . إن تونس لفى حاجة إلى أن ترفع رأسها عالياً حتى تشاهد أنوار السماء وشموسها ، وحتى تقبِّل شفتاها أضواء النجوم . ولئن كانت تونس فقيرة إلى هذا الضرب من أبنائها . . هذا الضرب الذى يحن إلى أن يعيش عيشة كلها حق ولذة وجمال ، وكلها إحساس وشعور وعواطف . . إن كانت تونس فقيرة إلى هذا النوع من أبنائها - فإنه يجب على النفر القليل منهم أن يبذلوا كل مافى جهدهم من عزم وقوة وحمية وشباب ، حتى يستطيعوا أن يكونوا نشئاً حَيًّا مخلصًا ، شاعرًا بواجبه لأمته وللحياة وللوجود ، وأن يخلقوا فى الواقع ذلك الوسط الحى الجميل ، الذى نتصوره فى أحلامنا ، ثم نلتفت فلا نلمح له أثرا » .

لقد كان النثر عند الشابى ترجمة للنفس ومايعتمل بداخلها ، فى سهولة وسلاسة ، إنك حين تطالع له نصًا نثريًا تلتقى مع البساطة التى كان يبدع بها شعره ، لأنك لو تأملت اللونين فإنك لن تجد فرقاً فى الفكر ، ولا البناء اللغوى ، فلا تلمس الفرق إلا فى موسيقى الشعر .

لقد كان الشابى ناقماً ، كما كان متفائلا ، ولو نظرت إلى نقمة أو تشاؤم فى شعره فمرجعه إلى أمل فكرى فى ذهنه ، وأمنيات كبار كانت تراود نفسه ، وليس هذا جديدًا على أديب مثل الشابى . . لقد تبرم الخيَّام ، والمعَرِّى ، و«دى فينى» ، و« بُودْلير » ، لا لأن الاحتياج أو الفاقة أرغمتهم على الشكوى والتبرم . . فقد كانت لهم فى نفوس معاصريهم من المكانة والإعجاب المكانة المرموقة ، كما أن الأسباب توفرت لديهم لتمكنهم من قضاء بقية أعمارهم فى هناءة موفورة ، ولكنهم فكروا ، وأطالوا التفكير . ومن هنا كان مصدر نقمتهم ، وأساس ذلك النظرة العميقة فى سُنن الكون وأوضاع المجتمع ، ولهذا يقول الشابى : « على الحياة أنا أبكى لشقوتها » .

إن الشاعر صورة باقية خالدة ، وملامح ثابتة لاتبلى ، يكسبها الموت ذلك الثبات ، لأنه ـ أى الموت ـ يوقف عمل « الكاميرا » لتظل الصورة بين أيدينا ، مرتسمة على صفحات الخلود : ويغدو صاحبها مكتسياً من جلال الأبدية مالا تمحوه الأيام ، ولا تعبث به طوارق الحدثان .

إن الشاعر يعيش بهذه الصورة حياته الحقة ، التى تتعاقب عليها الأجيال ، وكأنهم يرونه رأى العين من خلال إبداعه الخالد . ولا أظننى مبالغاً إذا قلت : إن ذلك الخلود هو ماكان ينشده الشابى ويبتغيه طيلة حياته القصيرة ، المضطربة الممتلئة كفاحاً مع ظواهر المادة المتناقضة ، الزائلة ، طموحاً إلى عالم اللانهاية ، حيث لاقيد ولا فتور .

وخليق بالشابى وأمثاله أن يطمحوا إلى هذا النوع من الخلود ، فقد اكتملت له أجَلُّ صفات الشاعرية الخالصة ، تلك التى لايشوبها النظم والصناعة . لقد استطاع بكيمياء ألفاظه وعباراته أن يمزج نغماته بعالم كامل ، له صبغته البديعية الخاصة ، ولونه العجيب المتميز ، وشكله

المتفرد. وتلك هى الروح الشعرية ، وإن شئت قلت « السحرية » ، التى نجدها تسرى فى قصائد الشابى كافة .

لقد كان الشابى سيلاً منهمرًا من الصور والرؤى ، لاتفتر بين ثناياه قوة الإبداع والابتكار ، ولا ينضب معينه من مادة الخلق والتكوين العجيب .

لقد توصل فى آخر عهده إلى التوفيق بين طموح نفسه نحو الكمال والجمال المطلق . ومافى الكون من مظاهر تفنى وتتلاشى ، فأدرك أن الانتصارَ نَصِيبُ الطامحين ، والجمال مَوْرِدٌ لا يصيبه التوقف .

مأتم الحب

لَيت شِعْرى !
أَيُّ طير

يسمعُ الأحزانَ تبكى   بين أعماقِ القُلوب
ثم لا يهتف فى الفجر   بِرَنَّاتِ النَّحِيب (١)

بخُشوع ، واكتئاب

●●●

لست أدرى
أيُّ أمر

أَخْرَسَ (٢) العُصْفُورَ عنِّى   أتُرى مَاتَ الشُّعورْ
فى جميع الكَوْنِ ، حتى   فى حُشاشاتِ الطيورْ ؟

أمْ بكَى خلف السَّحاب ؟

---

(١) النحيب : البكاء .
(٢) أخرسَ : أسْكَتَ .

فى الدياجى
كم أناجى

مَسْمَع القبرِ ، بغصَّات نحيبى ، وشجونى (١)
ثم أصغى ، عَلَّنِى أسمعُ ترديدَ أَنِينِى
فأرى صوتِى فريدْ !

●●●

فَأُنَادِى :

«يافؤادى»

« ماتَ مَنْ تَهْوَى ! وهذا اللَّحْد قد ضَمَّ الحَبيب »
« فَابْكِ ياقلبُ بما فِيكَ مِنَ الحُزْنِ المُذِيب »
«ابْكِ ياقلب ، وحِيْد ! » .

●●●

ذل قلبى
مَات حُبِّى !

فَاذْرِفى يامُقْلَةَ الليلِ الدَّرَارِى عبرات
حَوْلَ حُبِّى ، فهو قد وَدَّع آفاقَ الحياة
بعد أن ذاقَ اللَّهيب

●●●

---

(١) غَصَّات : جمع غصة ، وهو مايقف فى الحلق عند امتلائه .

ياشعر

ياشعرُ أنْتَ فمُ الشُّعور ، وصَرْخَةُ الروح الكئيبْ
ياشعر أنت صَدَى نحيبِ القلب ، والصَّبُّ الغريب

●●●

ياشعر أنت مدامعٌ عَلِقَتْ بأهداب الحياةْ
ياشعر أنت دمٌ ، تفجَّرَ مِنْ كُلُومِ الكائنات (١)

●●●

ياشعر ! قلبى ـ مثلما تدرى ـ شقىٌّ ، مظلمُ
فيه الجراحُ النُّجْلُ (٢)، يقطر من مغاورها الدمُ

●●●

جمدت على شفتيه أرزاءُ (٣) الحياة العابسهْ
فهو التعيسُ ، يُذيبه نَوْحُ القلوب البائسهْ

●●●

---

(١) كلوم : جراح ، مفردها كَلْم .

(٢) أصل النَّجْل سعة شق العين . يقال : عين نجلاء ، ولكن المعنى هنا الجراح الممتدة الواسعة .

(٣) أرزاء : مصائب .

أبدًا ينوح بحرقةٍ ، بين الأمانى الهاوِيَهْ
كالبلبل الغِرِّيد مابين الزهور الذَّاوِيَهْ

● ● ●

كمْ قد نصحتُ له بأن يسلو ، وكمْ عزّيتُه
فأَبَى ، وماأصَغْىَ إلى قولى ، فما أجْديتُه

● ● ●

كم قلت : « صبرًا يافؤادُ ! ألا تكُفُّ عن النَّحِيبْ ؟»
«فإذا تجلّدتِ الحياةُ تبدَّدَتْ شُعَلُ اللَّهِيب»

● ● ●

«ياقلب ! لا تجزع أمامَ تصلُّب الدهر الهصورْ »(١)
« فإذا صرختَ توجُّعا هَزِأَتْ بصرختكَ الدهورْ»

● ● ●

ياقلب !لاتسخط على الأيام ، فالزَّهْرُ البديعْ »
« يصغى لضجّاتِ العَواصِفِ قبل أنغام الربيع »

● ● ●

«ياقلب! لا تقنعْ بشوكِ اليأس من بين الزهورْ »
« فوراءَ أَوْجَاع الحياةِ عُذوبةُ الأَمَلِ الجَسُور » (٢)

---

(١) الهصور : الهائج .
(٢) الجسور : الجرىء .

« ياقلب ! لا تسكبْ دُموعَكَ بالفضاء فتندمِ »
« فَعـلَى ابتسامـــاتِ الـفـضَـاء قساوةُ المُتَهَكِّمِ »

●●●

لكـنَّ قلبـى ـ وهـو مُخْضـل (١) الجـوانب بالـدموعْ
جاشتْ به الأحزانُ ، إذ طفحتْ بها تلك الصُّدوع

●●●

يبـكـى عَلَـى الحُلُمِ البَعِيد بِلَوْعَةٍ ، لاتنـجلـى
غـرِدًا ، كـصَدَّاحِ الهَواتِف فى الفلا ، ويقول لى

●●●

« طـهِّرْ كُلُومَكَ بالدُّموع ، وخلِّها ، وسبيلَها »
« إن المـدامــع لا تُضيع حقيرها وجليـلهـــا »

●●●

« فَـمِنَ المدامع ما تدفَّع جارفاً حَسَك (٢) الحياةْ
يــرْمى لهـاوية الـــوجود بكـل مـــا يبنى الطغاةْ »

●●●

«ومـن المدامـع مـا تألّق فى الغياهب كالنجومْ»
« ومـن المدامع ما أراح النفسَ من عبء الهموم »

---

(١) مخضل : مبتل .
(٢) الحسك : الشوك .

فارحَم تعاسته ، ونُحْ معه عَلَى أحْلامِهِ
فلقد قَضى الحلمُ البديعُ على لظى آلامِهِ

●●●

ياشعر! ياوحْيَ الوجودِ الحَيِّ ! يالُغَةَ الملايك (١)
غرِّدْ ، فأيّامى أنا تبكى على إيقاع نَايِكْ

●●●

رَدِّدْ عَلَى سَمْع الدجى أنّاتِ قلبى الواهِيَهْ
واسكبْ بأجْفَانِ الزهور دموعَ قلبى الداميهْ

●●●

فلعلَّ قلبَ الليل أرحم بالقُلوب الباكيهْ
ولعلّ جفنَ الزهر أحفظُ للدموع الجاريهْ

●●●

كم حَرّكَتْ كفُّ الأسى أوتارَ ذيّاك الحنينْ
فتهاملتْ أحزانُ قلبى فى أغارِيدِ الأنين

●●●

فَلَكَمْ أرَقْتُ مَدامِعى ، حتى تقرّحتِ (٢) الجفونْ
ثُمَّ التفتُّ ، فلم أجد قلباً يُقاسمنى الشجون

---

(١) الملايك : يقصد الملائكة .

(٢) تقرحت : أصابتها القروح ، وهى الجروح .

صفحة من كتاب الدموع (١)

غَنَّاه الأمس ، وأطْرَبَهُ   وشَجَاه اليوم ، فما غدُه ؟
قد كان له قلبٌ ، كالطفل ـ   يدُ الأحلام تهدهِده (٢)
مُذْ كان له مَلَكٌ فى الكو   ن جميلُ الطلْعَة ، يعبده
فى جَوْفِ الليل يناجيه   وأمامَ الفجر يمجّده
وعلى الهضبات يغنِّيه   آياتِ الحب ويُنْشده
لولاه لَمَا عَذُبَتْ فى الكوْ   ن مصادره وموارده
ولَمَا فاضتْ بالشِّعْر ـ   الحىِّ مشاعره وقصائده
تمشى فى الغاب فتَتْبَعُه   أفراح الحُبّ ، وتنشده
ويرى الآفاق فيُبْصِرها   زُمرًا (٣) فى النُّور ، تُراصده
ويرى الأطيارَ ، فيحسبُها   أحلامَ الحب تغرده
ويرى الأزهار ، فيحسبها   بسماتِ الحب توادِدُه
فيخال الكونَ يناجيه   وجمالَ العالم يسعده !
ونُجومَ الليلِ تُضَاحِكُه !   ونَسِيمَ الغابِ يُطارِدُه !

---

(١) معارضة لقصيدة الحُصْرى الشهيرة :

يا ليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده

التى عارضها عشرات من الشعراء ، و من أشهرهم أحمد شوقى بقصيدته :

مُضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحَّم عُوَّده

(٢) تهدهده : تدلله .

(٣) زمرا : جماعات .

ويخال الوردَ يداعبه   فرحاً ، فتعابثه يده ! . .
ويرى الينبوع ونَضرتَه ،   ونسيمَ الصُّبْح يجعِّده
وخريرُ الماءِ له نغَمٌ   نسماتُ الغاب تُردِّده
ويرى الأعشاب وقد سمقتْ   بين الأشجار تُشاهِده
ونِطافُ الطِّفل تُنَمِّقُها   فيجل « الحبَّ » ويحمده

●●●

يالَلأيام ! فكم سَرَّتْ   قلْباً فى الناس لتكمدَه
هى مثل العاهر ، عاشِقُها   تسقيه الخمر . . وتطرده !
يعطيكَ اليومُ حلاوتَها   كالشَّهد ليسلبَها غدُه !

●●●

بالأمس يُعانِقُها فَرِحاً   ويضاجعُها ، فُتوَسِّده
واليومَ ، يُسايِرُهَا شبَحاً   أضناه الحزنُ ، ونَكَّدَهُ
يتلو فى الغاب مراثيَه   وجذوعُ السَّرْوِ تُسانِدُه
ويُماشِى الناسَ ، وما أحد   منهم يشجيه تفرُّده
فى ليل الوحشة مَسْراه   وبكهف الوَحدة مَرْقَدُه
أصوات الأمس تعذِّبه   وخيال الموت يُهدِّده
بالأمس له شفَقٌ فى الكو   ن يضىءُ الأُفْقَ تورُّده
واليوم ، لقد غشَّاه الليـ   ـلُ فما فى العالم يُسْعده
غنَّاه الأمسُ وأطْرَبَهُ   وشَجَاه اليوم ، فَمَا غده ؟

الصباح الجديد

اسكُنى ياجِراحْ   واسكُتى ياشِجونْ
ماتَ عهد النّواحْ   وزمانُ الجنون
وأطَلّ الصّباحْ   مِنْ وراء القرونْ

●●●

فى فِجاج الرّدى   قد دفنت الألَمْ
ونثرتُ الدُّموعْ   لرياحِ العَدَمْ
واتَّخذتُ الحياة   معزفاً للنَّغمْ
أتغنَّى عليه   فى رحابِ الزمانْ

●●●

وأذبتُ الأسَى   فى جمال الوجودْ
ودَحوْتُ (١) الفؤادْ   وَاحة للنشيدْ
والضِّيا والظلالْ   والشَذَا والورودْ
والهوى والشبابْ   والمُنى والحَنانْ

●●●

---

(١) دحوت : بسطت وهيأت .

اسكُنى ياجراحْ واسكُتى ياشجونْ
مات عهدُ النواحْ وزمان الجُنونْ
وأطَلَّ الصباحْ من وراءِ القُرونْ

* * *

فى فؤادى الرحيبْ معبدٌ للجمالْ
شيَّدتْه الحياه بالرُّؤَى والخيال
فتلوْتُ الصلاه فى خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأْتُ الشموعْ

* * *

إنَّ سِحْرَ الحياهْ خالدٌ لا يزول
فَعلامَ الشكاهْ مِنْ ظلامٍ يحول (١)
ثُمَّ يأتِي الصباح وتمُرُّ الفصول .. ؟
سوف يأتى ربيعْ إنْ تقضَّى (٢) ربيع

* * *

اسكُنِي ياجراحْ واسكُتى ياشجونْ
مات عهدُ النواح وزمانُ الجنون
وأطلّ الصباح من وراءِ القرونْ

* * *

---

(١) يحول : ينتهى .

(٢) تقضى : انتهى .

مــن وراء الظلامْ   وهدير المياهْ
قد دعانى الصباح   وربيعُ الحياهْ
ياله من دُعَاء   هزّ قلبى صداه !
لَمْ يَعُدْ لى بقَاء   فوق هذى البقاع

●●●

الوَداعَ ! الوَداع !   ياجبالَ الهمومْ
ياضباب الأسى !   يافِجاجَ (١) الجحيم !
قد جَرَى زوْرقى   فى الخِضَمِّ العظيم . .
ونشرتُ القلاعْ . .   فالوَداع ! الوَداع !

---

(١) الفجاِج، بكسر بالفاء ، مفردها : فج ، بفتح الفاء ، ويُطلق على الطريق الواسع بين جبلين . وعلى هذا فاستخدامها مع الجحيم استخدام مجازىّ .

الدنيا الميتة

إنِّى أرَى . . فأَرَى جُموعاً جَمَّةً   لكنّها تحيا بِلاَ ألْبابِ
يدوى حوالَيْها الزمان ، كأنما   يدوى حوالَىْ جَنْدل وترابِ
وإذا استجابوا للزمان تناكروا   وتراشقوا بالشوك والأحْصَاب
وقَضَوْا على روح الأُخُوَّة بينهم   جهلاً وعاشوا عيشة الأغراب
فَرِحَتْ بهم غولُ التعاسة والفنا   ومطامعُ السلاّب والغلاّب
لُعَبٌ ، تُحرّكها المطامعُ ، واللُّهى   وصغائرُ الأحقادِ والآرَابِ
وأرى نفوساً ، من دُخان ، جامدٍ   مَيْتٍ ، كأشباحٍ ، وراء ضباب
مَوْتى ، نسُوا شوقَ الحياة وعزمَها   وتحرّكوا كتحرُّك الأنصاب (١)
وخَبَا بِهِمْ لَهَبُ الوجود ، فما بَقَوْا   إلاّ كمحترِقٍ من الأخشاب
لاقلبَ يقتحمُ الحياةَ ، ولا حِجى   يسمو سُمُوَّ الطائر الجوّاب
بل فى التراب الميَتِ ، فى حَزْن الثرى   تنمو مشاعرهم مع الأعشاب
وتموت خاملةً ، كزهْرٍ بائس   ينمو ويذبُل فى ظلام الغاب
أبدًا تُحدِّقُ فى التراب . . ولا ترَى   نورَ السماء . . فروحُها كتراب . . !
الشاعر الموهوبُ يُهرِق (٢) فنَّه   هدرًا على الأقدام والأعتاب
ويعيش فى كون ، عقيم ، ميِّتٍ   قد شيَّدته غباوةُ الأحقاب

---

(١) الأنصاب : التماثيل .

(٢) يهرق : الإهراق أصلا للسوائل ، وإهراق الفن هنا إضاعته ، وهو استخدام مجازى .

والعالِمُ النِّحرير يُنْفِقُ عُمْرَه   فى فهم ألفاظٍ ، وَدَرْسِ كتاب
يحيا على رِمَمِ القَديم المُجتوَى   كالدُّود فى جمَمِ الرماد الخابى (١)
والشعبُ بينهما قطيعٌ ضائعُ   دنياه دنيا مأكل وشراب

●●●

الويلُ للحَسّاس فى دُنْيَاهُمُ   ماذا يُلاقِى من أسًى وعذاب !

---

(١) الخابى : يقصد المختبىء .

المراجع

عربية :

١ ـ أغانى الحياة (ديوان شعر) ، أبو القاسم الشابى .

٢ ـ الشابى : حياته وشعره ، أبو القاسم كرُّو ، ط تونس ١٩٧٣ .

٣ ـ شعب وشاعر ، نعمات أحمد فؤاد ،

الدار العربية للكتاب (ليبيا/ تونس) ١٩٧٧ .

٤ ـ مصادر الشعور بالكآبة فى ديوان أغانى الحياة ،

الجزار المنصف . مجلة الفكر / تونس ، عدد ٣ ، ديسمبر ١٩٨٤ .

٥ ـ الخيال الشعرى عند العرب / الشابى ،

إصدار مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى ، ١٩٩٤ .

أجنبية :

Chabbi Abul Gasin , Journal Traduil Par Chamli Monji e Ben Tsmail Mohamed Beit El Hima , Cartage , Tunis 1988

مجلات ودوريات :

١ ـ أبولو . (مجلة مصرية) عدد ديسمبر ١٩٣٤ .

٢ ـ الهدف (جريدة ثقافية تونسية) عدد ديسمبر ١٩٧٤ .

٣ ـ البلاغ (جريدة مصرية) عدد ١٤ / ١/ ١٩٥٣ .

ketab.me

مشاهير الشعراء العرب

للناشئين والشباب

يسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدم للشباب والناشئين هذه المجموعة من أعلام الشعر العربى ، الذين عاشوا فى عصور وبيئات مختلفة ، وتركوا لنا بصمات واضحة فى مسيرة الشعر العربى . يقدم كل كتاب من هذه السلسلة ترجمة موجزة ووافيه للشاعر وعصره ، والتيارات الأدبية التى أثرت فى شعره ، كما يلقى الضوء على جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية ، مع الإلمام بسمات كل شاعر والتعريف بالبيئة التى نشأ فيها ، والمدرسة الشعرية التى يمثلها أو الاتجاه الشعرى الذى ينسج على منواله ، مع وضع نماذج ومختارات من شعره .

لقد تم اختيار هذه المجموعة من الشعراء المطبوعين المبدعين على أيدى مجموعة من الكُتَّاب المتخصصين فى هذا المجال .
- وجدير بكل شاب أن يلم بحياتهم ، وشعرهم الجيد
الراقى الرفيع الذى يتغلغل
فى النفوس ويهز
الوجدان .

الدار المصرية اللبنانية
DMLP

تصميم و رسوم
محمد حجى